الدكتور عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

قبسات من الكتاب والسنة

تدبُّرٌ وظلالٌ

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

شركة دار النحوي
للنشر والتوزيع المحدودة

الدكتور عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

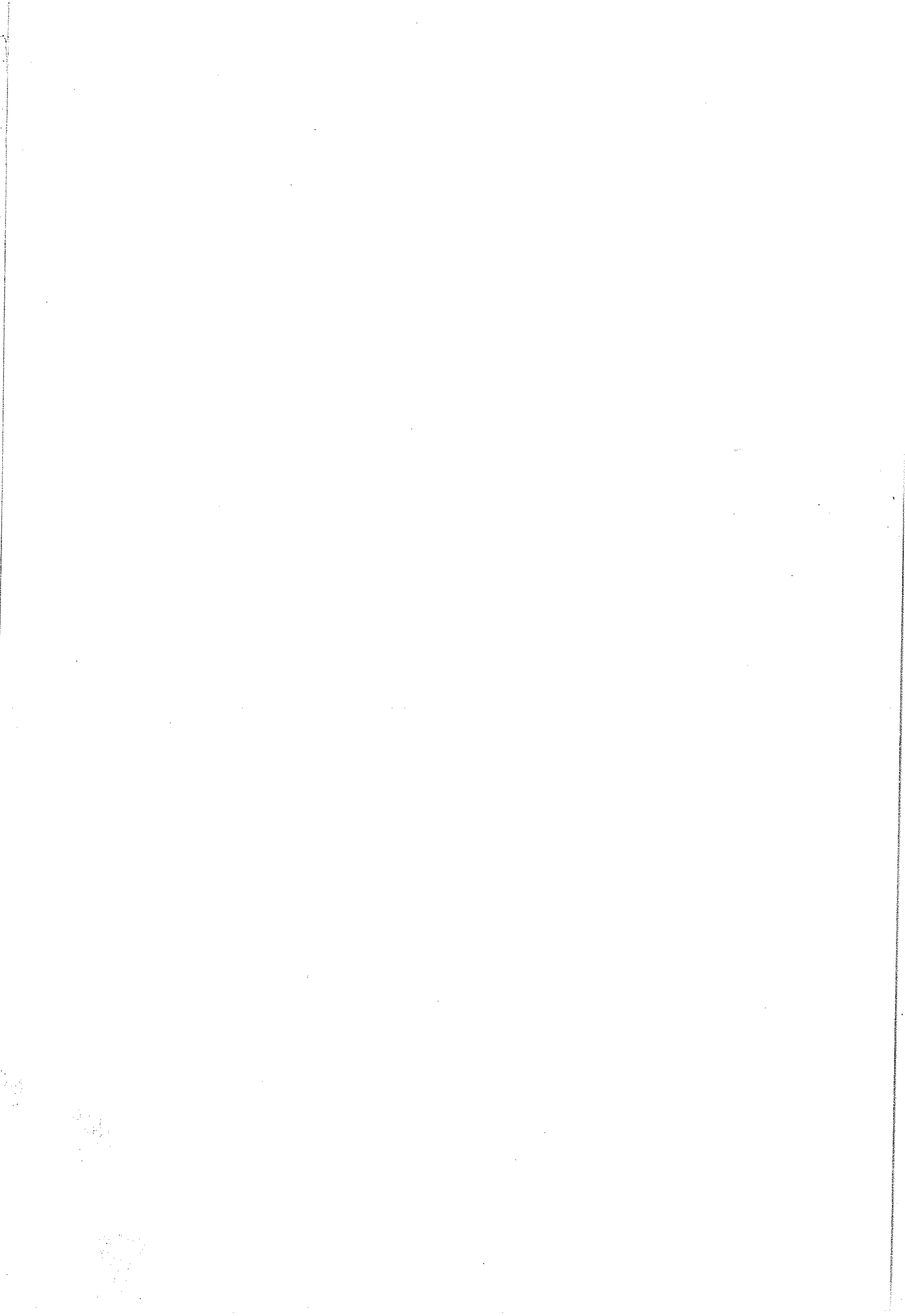
قبسات من الكتاب والسنة

تدبُّرٌ وظلالٌ

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

شركة دار النحوي
للنشر والتوزيع المحدودة



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

قبسات من الكتاب والسنة

تدَبُّرٌ وظلالٌ

الجزء الثالث

الدكتور عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ-٢٠١٠م

شركة دار النحوي
للنشر والتوزيع المحدودة

ⓒ دار النحوي للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

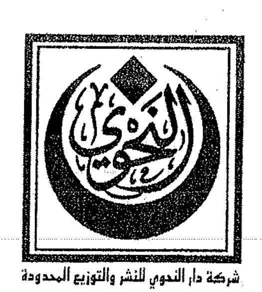
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي، عدنان علي رضا
قبسات من الكتاب والسنة - تدبر وظلال - (الجزء الثالث)./
عدنان علي رضا النحوي .- الرياض، ١٤٣١هـ
٢٢٦ ص ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٤-٠٠-٨٠٧٢-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - مباحث عامة ٢- الدعوة الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣١/١٩٢٤

رقم الإيداع : ١٤٣١/١٩٢٤
ردمك : ٤-٠٠-٨٠٧٢-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

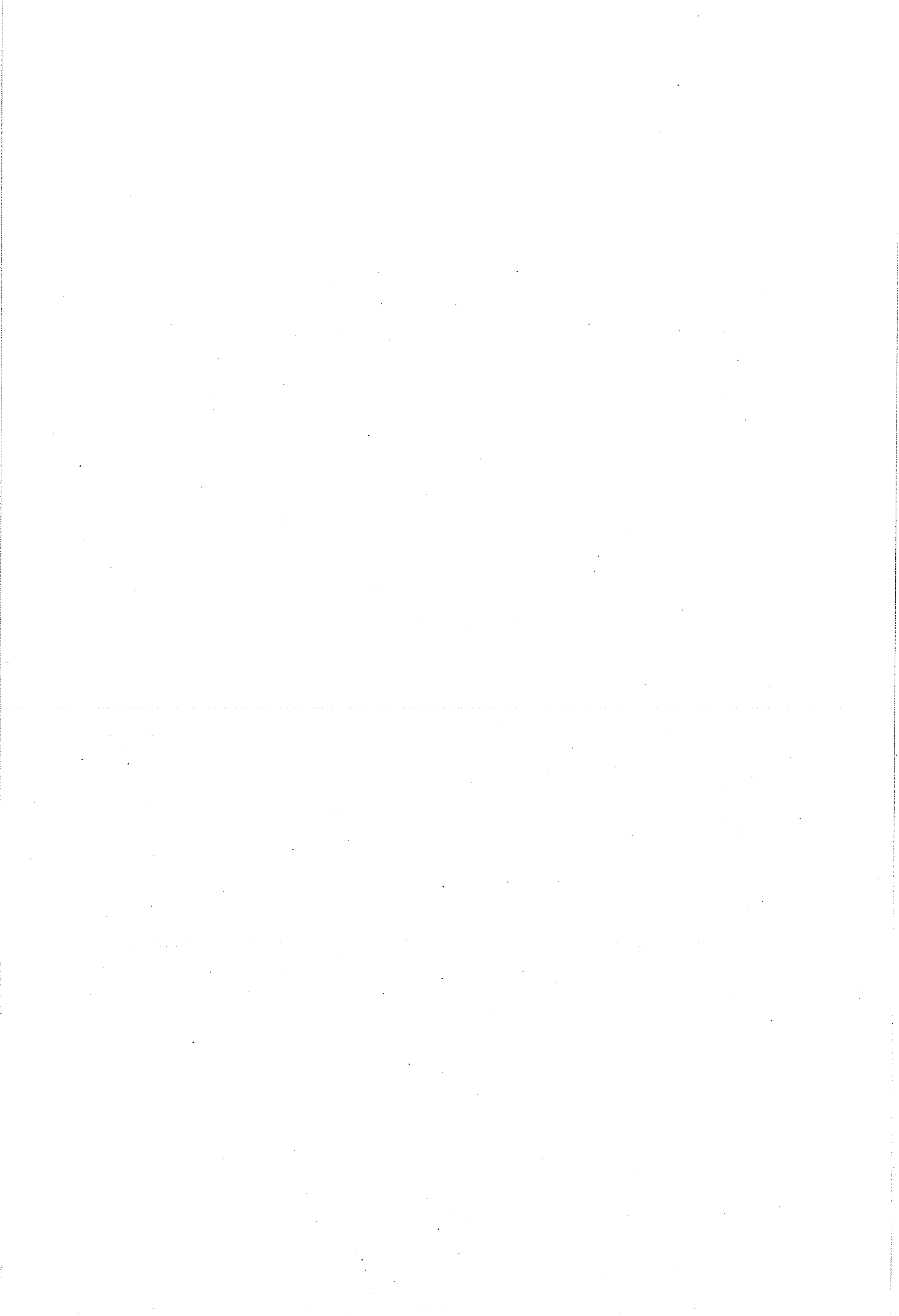


شركة دار النحوي للنشر والتوزيع المحدودة

هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ – فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
موقع الإنترنت : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com
ص . ب : ١٨٩١ ، الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية



موقع
" لقاء المؤمنين"
على الشبكة الدولية للمعلومات
www.alnahwi.com
يهدف هذه الموقع إلى المساهمة مع المواقع الإسلامية
الأخرى وجهود العاملين إلى بناء الجيل المؤمن وبناء
الأمة المسلمة الواحدة التي تكون فيها:
كلمة الله هي العليا
نأمل التلطف بزيارة هذا الموقع وإبداء ملاحظاتكم
ونصائحكم على البريد الإلكتروني:
ifno@alnahwi.com
كما يسرنا دعوة إخوانكم وأصدقائكم لزيارة الموقع.



الإهداء

إلى العاملين في ساحة الدعوة الإسلامية أفراداً ودعاة وجماعات ، لنثير بعض القضايا التي غابت طويلاً بين تمزق وصراع وأحزاب نهى الله عنها نهياً قاطعاً.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[آل عمران : ١٠٥]

لِنُقَدِّم إلى المسلمين جميعاً نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، ونهجاً نابعاً من أسس الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله، ومن مدرسة النبوة الخاتمة ومن وعي الواقع من خلال منهاج الله .

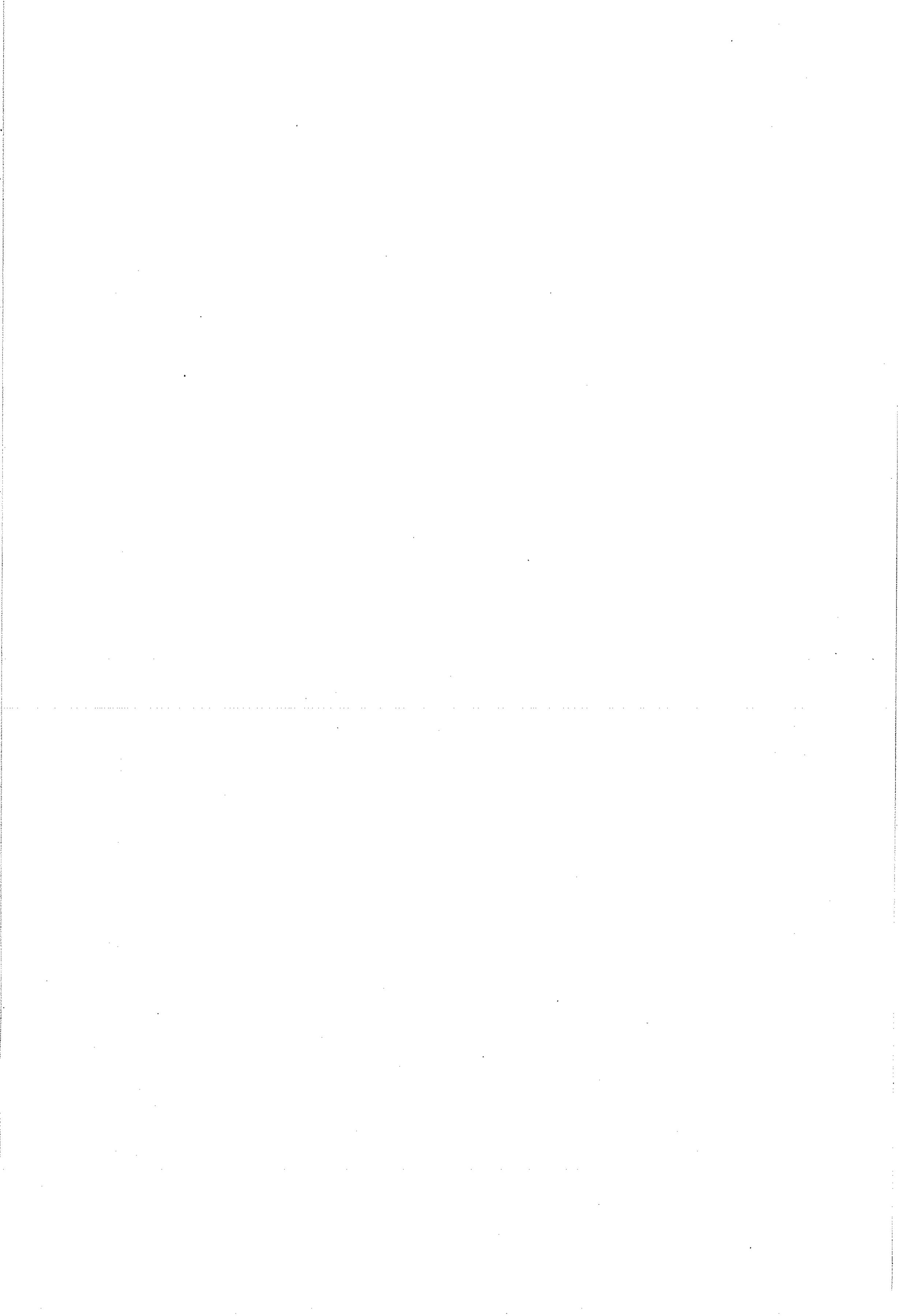
عسى أن يتقبله الله منا خالصاً لوجهه الكريم نقيّاً من شوائب الدنيا وغرورها وزينتها .

اللهم إنا نسألك رضاك والجنّة

الافتتاح

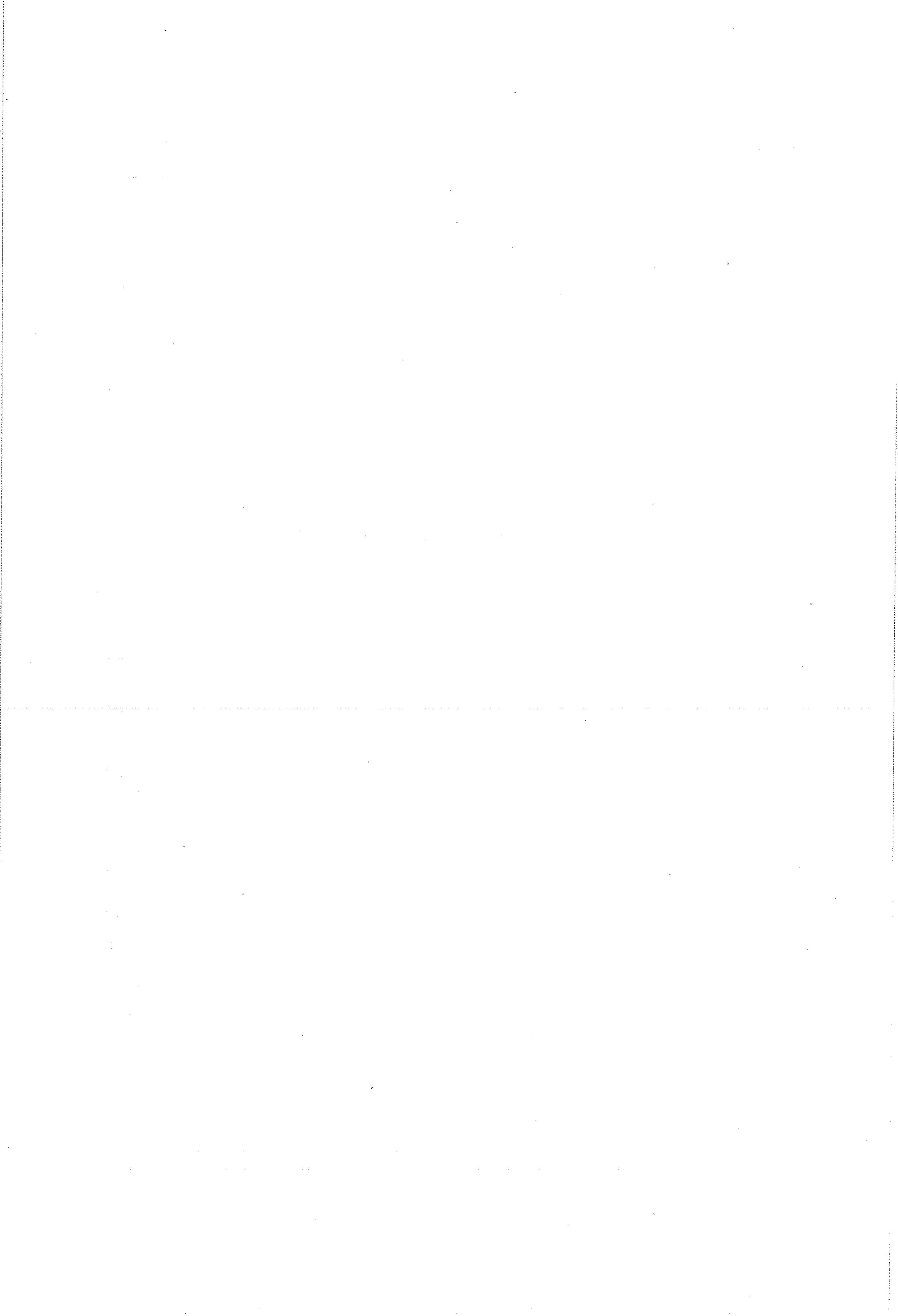
﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ. وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت : ٣٠ـ٣٣]





للدكتور عدنان علي رضا النحوي



تمهيد وتوضيح
لِـ : « كلماتٌ مضيئة »

أضع في أول كلِّ كتابٍ أُصدره هذه المجموعة من « **كلمات مضيئة** »، وسبب ذلك أَنَّ هذه الكلماتِ تمثِّل قواعدَ رئيسةً في الفكر الإسلامي ، والفقه ، والتربية الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، وسائر ميادين ممارسة منهاج الله في الواقع، وبذلك فهي تمثل جزءاً هاماً **من نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ومناهجها**. ومن ناحية أخرى فإن هذه القواعد غائبة عن ميدان الممارسة الإيمانية في واقع المسلمين ، مما أصبح من الواجب التذكير بها والإلحاح بها ، لتصل إلى أكبر عدد من القرّاء ، عسى أن تذكِّر وتنصح وتثير الرغبة في التأمل والتفكير ، والانطلاق إلى محاسبة النفس ، والتغيير ، والدعوة والبلاغ .

ولو وضعناها في كتاب واحد فقط من كتبنا لغاب الهدف المرجُّو ، وغابت الناحية التربوية التي نهدف إليها بالتذكير على أوسع نطاق ممكن ، وانقطعت فائدتها مع الأيام .

إن هذه القواعد في « **كلمات مضيئة** » تحتاج إلى تجديد التذكير بها بين حين وآخر لما لها من أهمية كبيرة ، وحاجة ملحّة في واقعنا اليوم ، وبناء واقعنا غداً إن شاء الله .

وأخيراً فإن هذه « الكلمات المضيئة » وما تحمله من قواعد ، نابعةٌ كلها من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ، ومن مدرسة النبوّة الخاتمة ، ومن وعي الواقع من خلال منهاج الله .

* * *

كلمات مضيئة

للدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

بناء الإنسان

إنّ بناء عمارة مهما عظمت يَسهل إذا قِيسَ ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الرباني وفق التوجيه النبوي . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيون ، أما بناء الإنسان وإعداده وتدريبه فهي مهمة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين خُتِموْا بمحمد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن ، على أساس من المنهاج الربّاني ـ قرآناً وسنّة ولغة عربيّة ـ .

* * *

حقُّ التعاون بين المؤمنين ووجوبه

يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا أن نختلف فيه ، ليكون التعاون أو الاختلاف خاضعاً لأمر الله وشرعه ، لا لاجتهاداتنا وأهوائنا ، ونختلف بهذا النصّ مع من يقول : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

* * *

خافوا على أنفسكم

أيها الناس ! أيها المسلمون ! أيها الدعاة ! كما تُظهِرون الخوف على الإسلام ، مع أَنَّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معه ، فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله ، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نصرتم

الله كما أمركم ، وتجنبْتُم الفتن التي نهاكم عنها ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا؟!
خافوا على أنفسكم كما تخافون على الإسلام .

* * *

إذا غاب النهج والتخطيط

إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الرّباني في واقع أي أمّة ، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضجّ بها ، ولا تجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخُطا، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثمّ الخدر يسري في العروق ، ثمّ الشلل ، ثم الاستسلام ! ثم تكون النهاية.

* * *

فريقان :
فريق له نهجه وخطته ، وفريق لا نهج له ولا خطة

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لا نهج له ولا خطة إلا الشعارات يُدوّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .

* * *

الأهداف الربانية وتحقيقها

إن الأهداف الربانيّة لا يمكن تحقيقها إلا بجنود ربّانيين ، ووسائل وأساليب ربانية.
وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد ربّاني .

* * *

العاجز

من عَجَزَ عن إصلاح نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره أو إصلاح المجتمع . كم من الذين ينادون بالإصلاح والتغيير هم أحوج الناس إلى الإصلاح .

* * *

تَقَبُّل النصيحة

من سدَّ أُذنيه عن النصيحة فَقَدَ فرصة عظيمة لمعرفة أخطائه ، وفرصة أعظم لمعرفة سبيل الإصلاح والعلاج ، وتعرَّض أكثر للمتاهة والضلال .

* * *

إتباع الحقِّ لا الهوى

إِن الهوى لا يُصْلحُ بل يُفْسِد ويُدَمِّر ، وإن اتِّباع الحقِّ هو سبيل الإصلاح للفرد والأسرة والجماعة والأمة ، وكذلك للبشريَّة كلها .

* * *

من صدقَ الله نجا

بين الحق والهوى باب ابتلاء وتمحيص . من صَدَقَ الله نجا ودخل إلى الحق ، ومن ضلَّ هلك ودخل إلى الهوى .

* * *

تكامل الإسلام
وتكامل الدعوة إليه

ليس من الحكمة أن نكتفي بإعلان مبادئ الرحمة والعفو والتسامح والسلام في الإسلام ، حين يكون مثل هذا الإعلان مظهراً من مظاهر الضعف والهوان والاستسلام أو يوحي به . ولكن الحكمة والواجب أن نُظْهِرَ تكامل الإسلام من عفو وتسامح ، ومن عقوبة وحزم ، ومن سلام وحرب ، ومن حكمة وتشريع ، ومن إيمان وتوحيد . فالإسلام لا يتجزأ بل هو دين شامل كامل لكل أمور الحياة الدنيوية والأخروية .

* * *

أين تبتدئ المعركة

إن المعركة مع أعداء الله تبتدئ أولاً في نفسك أيها الداعية المسلم ، فإن انتصرت فيها، فيمكن الانتقال إلى جولة بعد جولة ! وإن هُزِمْتَ بها فستُهزَم في سائر المعارك! وتظل هذه المعركة ممتدة مع المسلم حياته كلها حتى يلقى الله .

* * *

الحَيْدُ عن الصراط المستقيم

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل صراطه الحقَّ مستَقيماً وواضحاً ، حتى لا يضِلَّ عنه أحد. وجعله سبيلاً واحداً حتى لا يُخْتَلَف عليه . وجعله صراطاً مستقيماً واحداً ليجمع المؤمنين أمّة واحدةً وصفاً كالبنيان المرصوص. فلماذا تاه المسلمون عنه فتفرقّوا ، واختلفوا عليه فتمزَّقوا ، ثم ضَعُفوا وهانوا ؟!

عن أبي الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال : " **آلفقر تخافون ؟ والذي نفسي بيده لتُصَبَّن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغكم بعدي إنْ أزاغكم إلا هي** " ، **وأيم الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء.**

[ابن ماجه : المقدمة . أحمد : المسند ٤/ ١٢٦ ، الفتح الرباني :١٩/ ٣١٣]

* * *

حتى يفيقوا أو يهلكوا

وكلَّما توانى المؤمنون عن الوفاء بالعهد والتزام الحقِّ والدعوة الصافية في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص ، أنزل الله بهم البلاء والعقاب والعذاب ، حتى يستيقظوا أو يهلكوا . وقد يكون من العقاب تسلط الأعداء .

* * *

أخوة الإيمان
عاطفة ومسؤوليات

إنَّ أُخوّة الإيمان ليست عاطفة فحسب ، ولكنَّها مسؤوليات وواجبات ، وحقوق والتزامات ، لا تسقط حتى لو تغيَّرت العاطفة . إنَّها رابطة المؤمنين في الأرض جميعاً، رابطة يجب الوفاء بها . إنها رابطة ربَّانيّة أمر الله بها المؤمنين جميعاً ، حتّى يكون الولاء الأوَّل لله ، والعهد الأوّل مع الله ، والحب الأكبر لله ورسوله . وبغير ذلك لا تتحقّق أخوة الإيمان .

* * *

لو حقّق المسلمون
أخوّة الإيمان في واقعهم

لو أنَّ المسلمين حققوا في واقعهم « أُخوة الإيمان » كما أمر بها الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ لأنزل الله نصره عليهم ، ولسادوا العالم ! ولأعزّ الله الجميع ! كما حدث في صدر الإسلام .

* * *

أخوة الإيمان
والولاء الأول لله
والعهد الأول مع الله وحده
والحبّ الأكبر لله ولرسوله

لا تَصْدُق أخوّةُ الإيمان في ميدان الممارسة والتطبيق إلاّ إذا كان الولاء الأول لله وحده دون شرك ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر لله ولرسوله ، ثمَّ يَنبع كلُّ ولاء وعهد وحبٍّ في الحياة الدنيا من الولاء الأوّل والعهد الأول والحبّ الأكبر .

* * *

كلمة المؤمن
صادقة طيبة

كلمة المؤمن طيّبة ، قويّة، واعية ، لا تنحرف عن الصراط المستقيم . إنها بَرَكَةٌ للناس، ونورٌ في الحياة ، وسلاح في الميدان . وهي أساس حرّيّة الرأي ، وأساس النصيحة ، وقاعدة الشورى متى ما أدركها الإنسان المؤمن عاش في ظلها تقياً نقياً سعيداً .

* * *

الخلل فينا والأخطاء منَّا

لا يختلف مؤمنان في أنّ كلّ ما يجري في الكون والحياة ، من أمر صغير أو كبير ، هو بقضاء الله وقدره : قضاءً نافذاً ، وقدراً غالباً ، وحكمةً بالغةً ، وحقاً لا ظلم معه أبداً. ومن هنا وجب علينا شرعاً أن ننظر في أنفسنا ، في واقعنا ، فالخلل فينا ، والأخطاء منا ، والتقصير جليٌ كبير ! .

❊ ❊ ❊

أيها المسلم !
إنك مسؤول ومحاسَب !

إنك مسؤول أيها المسلم ! ، وإنك محاسَب . ولا يغرَّنَّك أن تقول لنفسك : إنَّ المسؤولين هم العلماء والدعاة وحدهم . نعم إنهم مسؤولون ومحاسَبون ، وإنك مسؤول ومحاسب . ولا تنفع الندامة والحسرة يوم القيامة ! فانهض إلى مسؤوليّتك أيها المسلم . قبل فوات الأوان .

❊ ❊ ❊

منهاج الله ودراسته
وتدبّره وممارسته في واقع الحياة

أيها المسلم ! لا تكن كالميت بهجرك دراسة منهاج الله وتدبّره وممارسته في واقع الحياة، فاطلب الحياة والنور ، والهداية والفلاح بذلك ، والقاعدة لذلك :

- إن تكون دراسة منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ منهجيّة يوميّاً .
- وأن تكون صحبة عمر وحياة لا تتوقف أبداً ، حتى يلقى المسلم ربّه !
- أن يتدرَّب المسلم على رد الواقع بأحداثه وأفكاره إلى منهاج الله ردّاً أميناً ، ليصاحب ذلك دراسة منهاج الله .

❊ ❊ ❊

التَزِمْ النَّهج الإيماني للتفكير

أخي الكريم ! أيها المسلم ! إن الله سبحانه وتعالى خلقنا على فطرة سليمة ، ووهبنا القدرة على التفكير ، فأول ما نطلبه ونوصي به هو أن نُفكّر ، أن نفكر التفكير الإيماني، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتفكير على نهجٍ إيمانيٍّ ونور وهداية بآيات كثيرة في القرآن الكريم .

* * *

الفقه في الإسلام

الفقه في الإسلام يقوم على ركنين : المنهاج الرباني - قرآنا وسنة ولغة عربيّة- والواقع . فلا يوجد فقه خاص يسمى « **فقه الواقع** » ، فالفقه كله قائم على الواقع والمنهاج الرباني على مرور الزمان واختلاف المكان فهو مواكب لكل تغيرات الحياة.

* * *

الفقه وامتداده وحدوده

كل مسلم مكلّف أن يجتهد فيما هو ضمن مسؤوليته الشرعية وحدود اختصاصه ووسعه وعلمه ، مما سيحاسَب هو عليه يوم القيامة ، دون أن تتعطل الاستعانة بإمكانات المجتمع ، أو الشورى ، على أن يهيئ المسلم نفسه للمسؤوليات المكلَّف بها ، ويتزوّد لها بالزاد الحق ، ويكون ذلك مرجعه الكتاب والسنة وأقوال العلماء الربانيين .

* * *

المسؤوليّة والفقه

لا فقه دون وفاء بالمسؤولية ، ولا وفاء بالمسؤولية دون فقه.

❊ ❊ ❊

العصبيات الجاهلية
والدعوة الإسلامية

إن العصبيات الجاهلية التي حرّمها الإسلام عقبة كبيرة أمام قيام الدعوة الإسلامية الواحدة في الأرض . وإن هذه العصبيات الجاهلية ثمرةُ تمكُّنِ الأَهواء والمصالح المادية الدنيوية في النفوس ، بعيداً عن تصور الدار الآخرة . ومن أخطر أشكال هذه العصبيات الجاهلية ما يلي :

- عصبية الإنسان لنفسه وهواه على غير حق ودعماً للباطل !
- العصبية العائلية على غير حق ودعماً للباطل ! إذا كانت تحصره في بوتقتها ومجالها الضيق .
- العصبية الحزبيّة التي يفسد فيها الولاء وتتمزّق بها الأمة .
- العصبية الوطنية والإقليمية والقومية على غير حق ودعماً للباطل .

❊ ❊ ❊

من أسس
الإيمان والتوحيد

إن من أسس الإيمان والتوحيد التبرُّؤ من العصبيات الجاهلية كلها ، ليكون الولاء الأول لله وحده ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر هو لله ورسوله ، لينبع كل ولاء وموالاة في الدنيا من الولاء الأول لله ، وكل عهد في الدنيا من العهد الأول

مع الله ، وكل حبّ في الدنيا من الحبّ الأكبر لله ورسوله . فتقوم بذلك أخوة الإيمان، وتقوم الأمة المسلمة الواحدة ، وتقوم الدعوة الإسلامية الواحدة في الأرض.

* * *

الدعوة الإسلامية واحدة

إن الله سبحانه وتعالى واحد ، وإن الدين عند الله واحد هو الإسلام ، وإن أمّة الإسلام واحدة ، فيجب أن تكون الدعوة الإسلامية في الأرض واحدة ، على نهج واحد، ومنهج رئيس واحد، وأهداف ربانيّة مُحدَّدة واحدة، فالإسلام وسع البشرية كلها . لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

* * *

منهج
الدعوة الإسلامية الواحدة ونهجها

يجب أن تكون الدعوة الإسلامية في الأرض واحدة ، ويجب أن يكون لها منهج تفصيلي تطبيقي واحد ، ونهج على الصراط المستقيم واحد . ويجب أن ينبع المنهج والنهج من : أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربية–، ومن مدرسة النبيّ الخاتم محمد ﷺ ، ومن وعي الواقع بعد ردّه إلى منهاج الله ، ليُلَبّي حاجة الواقع الذي يمرّ به المسلمون، وبذلك يصبح للدعوة الإسلامية الواحدة أهداف ربانيّة واحدة، تحملها أمة مسلمة واحدة، هي خير أمّة أُخرجِت للناس، لتكون صفًّا واحداً كالبنيان المرصوص .

* * *

نهج
مدرسة لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن
ونظرياتها العامة ومناهجها التطبيقية ونماذجها
ووسائلها وأساليبها ودراساتها المفصلة
وأهدافها المحدّدة ونظامها الإداري

إننا نقدم نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل بكامل أجزائه المترابطة ليكون أساس لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ، نابعاً من المصادر الأربعة : أسس الإيمان والتوحيد، منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربيّة - ومدرسة النبوّة الخاتمة مدرسة محمد ﷺ ، ومن وعي الواقع بعد ردّه إلى منهاج الله ليلبّي حاجة الواقع .

* * *

جوهر
الدعوة الإسلامية الواحدة

إن جوهر الدعوة الإسلامية الواحدة هو تبليغ رسالة الله إلى الناس كافّة ، كما أُنزِلَتْ على محمد ﷺ وتعهّدهم عليها تبليغاً وتعهُّداً منهجيّين ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

* * *

تبليغ الدعوة كما أنزلت من عند الله فرضٌ على المسلمين وتكليف من عند الله

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨]

* * *

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[النحل :١٢٥]

* * *

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت :٣٣]

* * *

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [الأحزاب :٣٩]

* * *

﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً . إِلا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾

[الجن :٢٢،٢٣]

* * *

﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾

[الجن :٢٨]

❊ ❊ ❊

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾

[إبراهيم :٥٢]

❊ ❊ ❊

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة :٦٧]

❊ ❊ ❊

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس : ١٧]

❊ ❊ ❊

وفي الأحاديث الشريفة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال :

(بلّغوا عنّي ولو آية ....)[1]

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد : المسند ٢/ ١٥٩،٢٠٢،٢١٤ ، الفتح : ١/ ١٧٧ ، الترمذي : ٤٢/ ١٣/ ٢٦٦٩ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : (٢٨٣٧) .

المسؤولية
عن تبليغ هذه الدعوة

إنها مسؤولية المسلمين جميعاً ، كلٌّ قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسَب عليه يوم القيامة ، بعد أن يتزوَّد بالزاد الرئيس الضروري : من صفاء الإيمان ، وصدق العلم بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله .

* * *

أيها المسلم ! انهض وتزوّدْ بالزاد الحق ، وانزلْ ميدان الدعوة في صف واحد كالبنيان المرصوص ، وبلِّغْ رسالة ربك كما أُنزلت على محمد ﷺ إلى الناس كافة وتعهَّدْهُمْ عليها ، وساهمْ في بناء لقاء المؤمنين والجيل المؤمن ، ومن ثمّ بناء الأمة المسلمة الواحدة ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض ، وسوف تجد أثر ذلك على نفسك وولدك وحياتك كلها وسوف تجد السعادة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

* * *

المقدمة

لقد كان الباعث الأول لهذه السلسلة من الكتب بأجزائها الثلاثة ، هو ما فتح الله به عليَّ من معانٍ وظلالٍ جديدة لبعض آيات الكتاب الكريم وبعْض الأحاديث الشريفة ، مما يخالف بعض ما ورد في بعض كتب التفسير . وما كان ذلك إلا نتيجة لملازمة دراسة الكتاب والسنة دراسةً منهجيّة لا تتوقَّف ، راجياً أن تمتد هذه الدراسة المنهجيّة صحبةَ عمر وحياة ، حتى ألقى الله سبحانه وتعالى ، مع تقصير وضعف يصيب الإنسان بسبب مرض أو ظروف طارئة ، نرجو الله أن يغفر لنا ضعفنا وتقصيرنا ، إنه هو الغفور الرحيم .

لقد تكرر في بعض كتب التفسير القول بأن هذه الآية الكريمة نَسخت تلك الآية . وهذا قول حقٌّ إن شاء الله فيما يتعلق في بعض الآيات ، ولكنها لا تصحَّ مع آيات أخرى ، حيث يكون السبب الحقيقي للاختلاف بين معنى الآيتين هو أن كلَّ آية تعالج موضوعاً آخر يختلف في جوهره عن موضوع الآية الأخرى ، كما بيّنا ذلك في الجزئيين السابقين .

أرى أن معنى أيّ آية في كتاب الله يجب أن ينسجم مع سائر معاني السورة، ومع نهج معاني الكتاب الكريم كله ، وأن تكون كلُّ آية وكلُّ سورة لبنةً في بناء هذا المنهج الرباني العظيم المتناسق كله ، المترابط كله ، المتكامل كله ، المعجز كله، الميسَّر كله، ليكون نهجاً للبشريّة كلها مع امتداد الأزمان وتغيّر الأحداث والوقائع، وليمدّ البشَريّة كلَّها بحلول متجدّدةٍ لواقع متجدّد . وهذا المدد يحتاج في الحقيقة إلى أجواء أُمّةٍ مُؤمنةٍ عالمة ، تعيش مع منهاج الله - قرآناً وسنةً ولغةً عربيّة - حياةً منهجيّةً ممتدّةً لا تنقطع ولا تتوقف ، صحبة عمر وحياة ، يعمر قلوبها صفاء الإيمان والتوحيد ، وقوة العلم بمنهاج الله ، وتمتدُّ في الأمّة مواهبُ حيّة ، وطاقاتٌ غنيّةٌ قادرةٌ على استخلاص الحلول من منهاج الله لكل واقع متجدِّد ومشكلات متجدّدة ،

تُغني هذه الحلولُ الإيمانيّة الأمّة عن استجداء الحلول من عالم مغاير بعيدٍ عن منهاج الله ونهجه الإيماني. بل الواجب أكبر من ذلك ، إذ لا يقف الأمر عند استخلاص حلول لمشكلات الأمة المتجدّدة ، بل استخلاص حلول لمشكلات البشرية كلِّها ومجتمعاتها كلها . لهذا الأمر وهذه الغاية العظيمة بعث الله نبيّه ورسوله محمداً ﷺ ، وأنزل كتابه الكريم للناس كافّة وللبشريّة كلها وللعصور كلها ، نوراً وهدايةً تشقّ ظلمات الأهواء والصراع على الدنيا وتنافسها .

وهذه الآيات البيّنات تشرق بهذه المعاني اليقينية ودلالاتها :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ :٢٨]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء :١٥٨]

وكذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء :١٠٧]

وكذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر :٤١]

ولا يقف التصوّر القرآنيّ عند هذا الحد ، ولكنه يمتدُّ ليُقرِّر أَنَّ رسالة الأنبياء جميعهم رسالة دين واحد ، دين الله الحق ، دين الإسلام ، دين نوح وإبراهيم ولوط ويعقوب وموسى وعيسى وسائر الرسل والأنبياء ، ورسالة محمد ﷺ ، مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، ليكون محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة :٢٨٥]

نعم ! « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » ! فرسالتهم ودينهم هو الإسلام هو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم جميعاً .

وهل يُعقَل أن يبعث الله الواحد الأحد لعباده أدياناً مختلفة أو يُنزل كتباً مختلفة يتصارع العباد عليها ثم يحاسبهم يوم القيامة ؟!

لا يُعقَل هذا أبداً ، إنه مخالف للحق الذي تقوم عليه السموات والأرض ومخالف للعقل ، ومخالف لأسس الحياة السليمة، ومخالفة لرحمة الله وعدله ! فالدين من عند الله واحد هو الإسلام :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران :١٩]

وكذلك :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ. قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٨٣-٨٥]

ومن هذه الحقائق الربانية نخرج بقواعد أساسيَّة تفلّت منها كثير من المسلمين اليوم ، نوجزها بما يلي :

أولاً : إن المؤمنين أُمَّةٌ واحدةٌ على مرّ التاريخ ومهما امتدّ الزمن ، لأن الدين عند الله

واحد هو الإسلام ، ولأن الله سبحانه وتعالى بعث رسله وأنبياءه جميعهم بدين واحد هو الإسلام ، « **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...** » ، فالتفرّق والتمزق في دين الله بغيٌ وقد جاءنا العلم الحق . وإنه لأَمر الله أنْ يكون المؤمنون أُمةً واحدةً تعبد ربّاً واحداً .

ثانياً : إن الله واحد ، والدين واحد ، والأمة واحدة ، فيجب أن تكون الدعوة الإسلامية الحق في الأرض دعوةً واحدةً في نهجها وأَهدافها ، كما كانت أيام الرسول محمد ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته الأبرار رضي الله عنهم .

ثالثاً : يجب تبليغ رسالة الله كما أُنزلت على محمد ﷺ تبليغاً منهجيًّا وتَعَهُّدُهم عليها تعهُّدًا منهجياً حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها .

رابعاً : يجب أن يتعاون المؤمنون في كل ما أمر الله أن يتعاونوا فيه ، وإذا اختلفوا فيختلفون بما أذن الله لهم بالاختلاف فيه ، ليكون الاختلاف لا يفرّق الأمة شيعاً ومذاهب وأحزاباً .

﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران :١٠٥]

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الأنعام :١٥٩]

وكيف يختلفون وهم مؤمنون يعبدون ربّاً واحداً ويتّبعون ديناً واحداً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، على صراط مستقيم بيّنه الله وفصّله وجعله واحداً ، وجعله مستقيماً ، إلا أن يكون الاختلاف سببه هوى في النفوس وقصور في العلم وعدم معرفة المسلم لحدوده وقدراته وتجاوزها .

خامساً : يجب أن لا يخوض المؤمنون المتّقون في قضايا الغَيب التي لا يعلمها إلا الله

وحده ، وإنما نؤمن بها كما جاءت في الكتاب والسنة حتى لا تكون مصدر خلاف وفتنة :

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل :٦٥]

سادساً: أن يفهم الواقع من خلال الكتاب والسنّة مع توافر البيّنة منهما على صحة الفهم ، ليكون هذا الفهم للواقع من خلال الكتاب والسنة لا من خلال الهوى والمصالح الدنيوية المتصارعة .

عندما تستقرّ هذه القضايا مع سائر أسس الإيمان والتوحيد ، فإنها تضبط الهوى وتلجمه ، وتضيّق أبواب الاختلاف التي تفرّق الأمة ولا توحّدها والتي يحرّمها الإسلام .

ربما ورد بعض ما سنذكر من هذه القبسات في بعض كتبنا الأخرى مثل: « الإسلام أركان وبناء ، هذا هو الصراط المستقيم ، حوار الأديان ، الفقه امتداده وشموله ، مصارحة ونصيحة ، وغيرها ». نعيد ذكرها هنا لأنها تمثل النهج الذي نلتزمه في سلسلة القبسات من الكتاب والسنة ، ولأنها تمثل في أذهان بعضهم مفهوماً خاطئاً .

ونذكر في هذا الصدد أن محاولة إيجاد حلول جديدة متجدّدة للواقع المتجدد بأحداثه ، يجب أن لا يفسدها الانحراف عن أسس الإيمان والتوحيد ، ولا عن قواعد منهاج الله المحكمة الثابتة ، ولا تنحرف بنا لنجاري أهواءنا وما يثور من رغبات في تقليد الغرب واتباع مفاهيمه العلمانية والحداثية .

لقد كان من أهم أسباب نزعة التقليد والتبعية ما نعاني من ضعف وجهل وعدم ثقة بالنفس ، وجهل واسع بالكتاب والسنة بين الملايين من المسلمين ، وبين

عدد كبير من المثقفين الذين نهلوا من ثقافة الغرب دون أن يدركوا الفروق الأساسية بين دين الله وما يدعون هم إليه . ولذلك أخذ الكثيرون يتفلّتون من الإسلام تحت غطاء التقدم والتطور .

كدنا نصبح تبعيّين في فكرنا وعاداتنا ولباسنا وأكلنا ومفاهيمنا عن الحياة والكون . ولكننا في الوقت نفسه ندعو بشدة إلى أن من واجبنا الشرعي أن نأخذ العلوم والصناعة وأسباب القوة ممن يملكون ذلك ، وأن نُسْرع في هذا الأمر لنضمه ويصبح جزءاً من حياتنا ، دون انحراف ولا تبعيّة ، ثم نسابق الأمم في ذلك ، وندعوها إلى دين الله ونحن أَعِزَّاء أقوياء . نأخذ ونعطي بعزَّة وقوَّة ووعي ، بثقة عالية غنيّة بديننا وفهمنا له ، وبثقة عالية بالله سبحانه وتعالى رب العالمين ، لنكون السابقين في ميدان العلوم والصناعة ، لنضعها في خير الإنسان وفي الدعوة إلى دينه الحق ، وقيادة البشريّة إلى خيرها وسلامتها .

فلنستيقظ من غفوتنا التي طالت ، ولننهض إلى عبادة الله على نهجه الحق ودينه الحق ، ولنتَذَكَّر دائماً أن دين الله أنزله على رسوله ونبيّه الخاتم محمد ﷺ للناس كافّة ، وللعصور كلها والأزمنة كلها ، وللمجتمعات كلها ، ليكون هذا الدين الحق العظيم مصدر كلّ إصلاح ومنبع كل الحلول لمشكلات الإنسان في كل عصر وكل واقع .

عدنان علي رضا محمد النحوي

٨ صفر ١٤٣١هـ

٢٣ يناير ٢٠١٠م

الرياض

قبسات
من القرآن الكريم

١. مع الآية الكريمة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾ .
٢. مع الآية الكريمة : ﴿.. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ... ﴾ .
٣. مع الآية الكريمة : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ .... ﴾ .
٤. مع الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ... ﴾ .
٥. مع الآية الكريمة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ .
٦. مع الآية الكريمة : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ... ﴾ .
٧. مع الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .
٨. مع الآية الكريمة : ﴿... وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ....﴾ .
٩. مع الآية الكريمة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ... ﴾ .
١٠. مع الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ...﴾ .



(١)

مع الآيـة الكريمة

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٠-٣٢]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٨-١٩]

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب :٣٩]

نعم ! هذا هو دين الله ، دين الفطرة ، يأمرنا الله بالتزام دينه صفاً واحداً ، منيبين إليه ، لا نشرك به شيئاً ، ولا نفرّق ديننا شيعاً وأحزاباً ، ويأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتقيَه وأن ننظر في أنفسنا ، ونحاسبَ أنفسنا ، لنرى ماذا قدّمنا من طاعة لله سنحاسب عليها يوم القيامة ، حتى لا نكون من الذين نسوا الله ونعمه وفضله ، فعاقبهم الله بأن أنساهم أنفسهم ، فأقبلوا على الدنيا وأدبروا عن الآخرة ، فلم يُبلِّغوا رسالة الله كما أمرهم الله ورسوله ، أمراً حاسماً واضحاً ، فخشوا الناس والدنيا أكثر من خشيتهم لله ، فكانوا من المفسدين الخاسرين .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧-٦١]

كان بين أيدينا دراسة بعنوان : « **لتكون كلمة الله هي العليا** » ، وإنها لتذكرنا بما يأمرنا به الله وبما فرضه علينا وفصّله في كتابه تفصيلا ، وفي سنة نبيّه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً ، وإنما خلقنا لنجعل كلمة الله هي العليا في الأرض. وهذه هي القضية والمهمة الأعظم في حياة المؤمنين ، في الحياة الدنيا، وهي الدرب الحق للآخرة. ولا يمكن تحقيق هذه المهمة العظيمة إلا **بتبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أنزلت على رسول الله r تبليغاً منهجيّاً وتعهُّدهم عليها تعهّداً منهجيّاً .**

ومن أَجل ذلك وبرحمة من الله وفضل منّ الله علينا بكلّ ما نحتاجه للوفاء بهذه المهمة ، حتى لا يكون لأحد من المؤمنين عذر في أيّ تقصير أبداً ، وسخَر لنا من أجل ذلك ما في السموات والأرض ، حتى نصدق الله بالوفاء بهذه المهمة :

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

ولقد امتدّت نِعَمُ حتى شملت الكون كله رحمة بالإنسان وفضلاً من الله عليه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم :٣٢-٣٤]

فلا عذر لأحد من خلق الله بعد ذلك بأن لا يوفي بهذه المهمة الرئيسة الخطيرة في حياة البشريّة كلها على الأرض ، إلا أن يكفر بالله وينسى الله وينسى نفسه وينسى مسؤولياته ، حتى يحاسَب عليها بين يدي الله يوم القيامة .

وحتى يستطيع المسلم أن يوفي بهذه المهمة فعليه أن يصدق إيمانه بالله ويحاسب نفسه ليل نهار ، ويستغفر الله ويتوب إليه ، حتى يتحقق في إيمانه الخصائص الربانيّة لصدق الإيمان وصفاء التوحيد :

- أن يكون ولاؤه الأول لله وحده ، ومن هذا الولاء لله تقوم كل موالاة في الحياة الدنيا .
- أن يكون عهده الأول مع الله وحده ، ومن هذا العهد الأول تقوم عهوده كلها في الحياة الدنيا .
- أن يكون حبَه الأكبر لله ورسوله ومن هذا الحب الأكبر ينشأ كل حُبٍّ له في الحياة الدنيا .
- أن يتبرّأ بذلك من جميع ألوان العصبيات الجاهلية تبرّؤاً خالصاً نقياً .
- أن يؤثر الدار الآخرة على الحياة الدنيا ويرجو ما عند الله فهو خير وأبقى .

ومن هذه الخصائص الإيمانيّة وغيرها مما فصّله منهاج الله تنشأ أخوّة الإيمان بين المؤمنين جميعاً ، الأخوة التي أمر الله بها ، وفصّلها في كتابه وفي سنة رسوله بين المؤمنين جميعاً ، وبغير هذه الخصائص الإيمانيّة لا تتحقق أخوة الإيمان ، ولا تتحقق الخصائص الإيمانيّة : العبادة ، والأمانة ، والخلافة ، والعمارة .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن نضع ما وهبنا من نعم في طاعة الله وحده وعبادته ، وأن لا نضعها في خدمة أعداء الله ، فنكون بذلك قد جعلنا نعم الله كفراً يجلب على القوم الدمار والهلاك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم :٢٨-٢٩]

وحتى لا يضعف المسلم في الحياة الدنيا أمام فتنها وشهواتها ، وحتى لا يضعف ويقصّر في الوفاء بالمهمة التي خُلِقَ لها والعبادة والأمانة والخلافة والعمارة، وجعل الله جميع تكاليفه الربانية المفصّلة في منهاج الله : من طلب العلم من منهاج الله، وتبليغ الدعوة كما ذكرنا ، والجهاد في سبيل الله من أجل ذلك ، وسائر التكاليف الربانيّة ، جعلها الله كلها تقوم على أساس صلب متين : الشهادتين والصلاة والزكاة والحج والصوم ، ليُبني الإسلام كُلّه : جميع التكاليف الربانية من طلب العلم والجهاد في سبيل الله ، والدعوة والبلاغ وغير ذلك ، على هذا الأساس الصلب ، بناءً كاملاً يتألّف من الأساس والبناء فوقه يقوم عليه :

عن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « **بُنيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان** » [أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي] (١)

هذا هو الإسلام دين الله ، وهذه هي مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه البناء كله ، والتكاليف كلها ، وهو الذي يمدُّ المؤمن ، إذا أوفى أداءه ، بالطاقة والقوة حتى يستطيع القيام بالتكاليف التي تقوم عليه .

إذن يجب أن نقفِ جميعاً مع أنفسنا لنرى مدى التزامنا بدين الله الحق ونهج مدرسة لقاء المؤمنين ، حتى لا نكذب أو نخدع أنفسنا ، ولا نكذب على الله ، ولا نكذب على الناس ، فالإثم عندئذ كبير . كلُّ بني آدم خطاء ، يسرع إلى الاستغفار والتوبة ، لكنه لا يُصرُّ على التقصير أو التوُّقف عن الأداء .

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ٢٨٤٠) .

ومن الملاحظات المبدئية التي يجب أن نتناصح بها هو أن كثيراً من المسلمين لا يوفون بالعهد والتكاليف بحجة انشغالهم في الدنيا ، في الوظيفة ، في العائلة ، في التجارة ، في أبواب شتى من الدنيا . ويحسبون أنهم على خير ، وأنهم معذورون ، وأنهم لا يستطيعون ، فلو قصّروا في واجبات الدنيا يظنُّون أنهم سيهلكون : كيف يطعمون أولادهم ونساءهم ، وكيف يعلمونهم . ونسي الجميع أن الرزق كله من عند الله :

﴿... نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ...﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

وعن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يُرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً**»

[أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم][1]

إنه ضعف الإيمان وغلبة الخوف من الدنيا ، وسوء التخطيط والتدبير . ولقد درستُ كثيراً من الحالات ، فما وجدت لأحد من عذر في تقصير أو ضعف . مهما كان الوقت ضيقاً كما يُزيّن الشيطان للكثيرين ، فإن في الوقت متسعاً كافياً للوفاء بالأمانة: ساعة أو أكثر يومياً ، ويوم الخميس ، ويوم الجمعة ، حين ينظم المسلم خُطته اليومية . ولكن بعضنا يجعل يوم الخميس أيضاً لدنياه ، ويوم الجمعة أيضاً لدنياه.

يقترح بعضهم إقامة مؤسسات إيمانية . وهذه قاعدة ضرورية في نهج مدرسة لقاء المؤمنين . ولنا فيها تجارب ، وحسبنا أن نقول أمامكم مؤسستان إيمانيّتان ، فلماذا لا تنهضوا بهما بعزيمة وقوة ، وتوفوا بهما العهد مع الله؟!

أم تريدون في حقيقة الأمر مؤسسات دنيوية تزيد الكسب الماديَ فحسب ، تغطونها بشعارات إيمانيّة وإسلامية وغير ذلك ؟! لقد أثير هذا الشعار كثيراً ، وتمت له اجتماعات كثيرة ، وفشلت الجهود كلها ! لماذا ؟! لأن المؤسسات الإيمانية تريد

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :٥٢٥٤) .

تجرُّداً خالصاً لله وإيماناً صافياً وتضحية حقيقية ، وإلا فلن تكون مؤسسات إيمانية تنصر دين الله .

لقد أقام غيرنا مؤسسات تجارية كثيرة باسم الإيمان والإسلام ، ويستشهد بعضهم بها على المؤسسات الإيمانية ! كلا إنها ليست إلا مؤسسات دنيوية يقوم بها ويشرف عليها مسلمون ودعاة مسلمون ، ولكن هؤلاء وهؤلاء ومؤسساتهم حتى اليوم لم تنصر الإسلام ولم تُعِزّ دين الله، شُغِلوا بها عن الدعوة وواجباتها ، ففقدوا النهج والتخطيط وتحديد الهدف وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . إنها لم تجمع المؤمنين في أخوة إيمانية ربّانية كما جاءت في الكتاب والسنة ، ولكنها أقامت أخوة حزبيّة ، وفرقت المسلمين شيعاً وأحزاباً وشغلوا بالدنيا عن الدعوة والآخرة .

نُريد تجرُّداً خالصاً لله وإيماناً صافياً وتضحية حقيقية ، وإلا فلن تكون مؤسسات إيمانيّة تنصر دين الله .

نخلص من ذلك كله إلى أن دين الله جليٌّ ميسّر للفهم والتدبر . ولو أدرك المسلمون اليوم هذه الركائز في الدعوة الإسلامية ، كما أدركها أصحاب رسول الله ﷺ ، لكانت الدعوة الإسلامية في الأرض كلها دعوة واحدة وصفاً واحداً ، وأهدافاً ربانيّة واحدة ، وأمة مسلمة واحدة ، إلى ذلك نسعى وإلى ذلك ندعو ونربي الأجيال المؤمنة .

الله والربُّ واحد ، والدين واحد ، والأمة المسلمة واحدة ، فالدعوة الإسلامية يجب أن تكون دعوة واحدة في شرق الأرض ومغاربها ، واحدة في أهدافها ونهجها ومناهجها ، لتمثل في الأرض صفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

لقد عرضنا في الصفحات السابقة ركائز الدعوة الإسلامية لنذكر أنفسنا بأهمية تثبيتها في النفوس ، وعرضنا أهم نواحي الخلل حتى ندرس أهم أسباب العلاج ووسائله :

١. اللجوء إلى الله استغفاراً توبة ، وطاعة وعبادة ، ودعاءً وإلحاحاً بكل ما يشعر المسلم أنه بحاجة إليه من شؤون المدرسة ونهجها ومسؤولياتها التي هي تكاليف ربانيّة . ومن أهم ما يدعو به أن يفتح الله عليه بتبليغ الدعوة وتعهد الناس عليها .

٢. التزام نهج المدرسة بتكامله . فإن قواعده كلها علاج للنفس وإطلاق لقدراتها على صدق الإيمان والتقوى وصدق اللجوء إلى الله والدعاء والإلحاح بالدعاء . ولذلك يجب الاستمرار بالتذكير بضرورة التزام النهج بتكامله وترابطه وتناسقه .

٣. على المدرس أن يبذل جهداً أكبر في الإعداد لمنهج اللقاء حتى يعطي الحياة لكل لقاء ويجدد النشاط فيه ، بدلاً من أن يكون الإعداد ارتجالياً في لحظات، واللقاء ارتجالياً كذلك . وعلى جميع أفراد اللقاء أن يتعاونوا على بعث روح النشاط والتجديد ، وفي حديث رسول الله ﷺ يرويه عنه ابن عمر رضي الله عنهما : « **إن الإيمان لِيخْلِقُ في جوف أحدكم كما يخْلِقُ الثوب ، فاسألوا الله تعالى أن يجدّد الإيمان في قلوبكم** » .

[أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم][1]

٤. يركز في بند الممارسة الإيمانية وبند الإيمان على أسس الإيمان والتوحيد وإعادتها وتكرارها حتى تثبت في النفوس مع الأمثلة التطبيقية من حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة ومن حاجة واقعنا اليوم . وكذلك التركيز على دراسة نهج الدعوة دراسة جادة حتى يستطيع المؤمن أن يعيده ويبلغه . فهما قضيتان يجب التذكير بهما وإعادتهما بصورة قوية يتعاون عليها الجميع ، ويتدرّب عليها الجميع .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزياته : (رقم : ١٥٩٠) .

- صدق الإيمان وصفاء التوحيد والخشية من الله على الأسس الربانيّة المفصّلة في الكتاب والسنة .
- إتقان دراسة نهج مدرسة لقاء المؤمنين والتدريب عليه حتى يصبح المؤمن قادراً على ردّه إلى منهاج الله ، وعلى عرضه والدعوة إليه .

إن نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن يجب أن يُغيّر حياة المسلم بإذن الله في جميع نواحيها : في نومه ويقظته ، وترتيب يومه كله ، وإقامة الشعائر ، وبذله وعطائه ، وإيثار الآخرة على الدنيا . يجب أن يغيّر تفكيره إلى النهج الإيماني للتفكير وهواه إلى هوى الإيمان والكتاب والسنة ، وبذله وعطاءه ليكون كله لله .

وفي ختام هذه الكلمة نذكّر بثلاث قواعد رئيسة في **نهج مدرسة لقاء المؤمنين** :

١. يجب تبليغ رسالة الله إلى الناس كافّة كما أُنزِلت على رسول الله ﷺ تبليغاً منهجيّاً كما يوفّره نهج مدرسة لقاء المؤمنين ، وتعهّدهم عليها تعهُّداً منهجيّاً، والمضي على ذلك تبليغاً وتعهّداً وبناءً حتى تكون كلمة الله هي العليا .
٢. إن الله واحد ، وإن دين الله واحد بعث به جميع الرسل والأنبياء ، وهو الإسلام ، وإن الأمة المسلمة التي أخرجها الله للناس أمّةٌ واحدة ، فيجب أن تكون الدعوة الإسلامية في الأرض كلها دعوة واحدة في نهجها ومناهجها وأهدافها ، كما كانت أيام الرسول ﷺ .
٣. يجب علينا جميعاً أفراداً وجماعات أن نتوب إلى الله توبة صادقة نسأل الله أن يعيننا عليها :

﴿... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[النور:٣١]

(٢)
مع الآية الكريمة
﴿ .. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ .. ﴾

كلُّ آية في كتاب الله تحتاج إلى تدبُّر وتأمّل، حتى تترابط الآيات كلها وتتماسك، في إعجاز رباني تتجدّد صوره في قلوب المؤمنين كلّما قرؤوا القرآن وتدبَّروه كأنه أُنزل الساعةَ .

وفي سورة الشرح آيات بينات تكشف عن فضل الله على رسوله محمد ﷺ: إذ شرح الله صدره بتكاليف النبوة والرسالة ، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر! ورفع ذكره في العالمين . ثمَّ تأتي البشرى من عند الله لرسوله بذهاب الضيق والعسر ومجيء يُسْرٍ بعد عُسْر . ثمَّ جاء أمر الله إليه ليرسم نهج النبوَّة في الحياة الدنيا ، نهج النبوَّة وهي تحمل الأمانة في أعظم صورها ، لتكون الأسوة الحسنة للمؤمنين بعامَّة وللدعاة بخاصَّة :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح : ٧-٨]

يقول مجاهد في تفسير هاتين الآيتين : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب إلى ربّك . وفي رواية أخرى عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب إلى حاجتك ! وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وقال زيد بن أسلم والضحاك : فإذا فرغت ، أي من الجهاد ، فانصب : أي في العبادة . وإلى ربّك فارغب : أي اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل ، كما قال النووي[١] . وأقوال أخرى مشابهة لذلك .

وكلُّ ذلك وارد في مضمون هذه الآيات ومعناها . ولكننا نرى هاتين الآيتين

(١) تفسير ابن كثير لسورة الشرح .

والسورة كلها ترسم الصراط المستقيم ، لمسيرة الدعوة الإسلامية ، ولمسيرة النبوّة الخاتمة والأمة المسلمة .

فالقضيّة التي تدور حولها الآيتان هي قضيّة الرسالة الربّانيّة التي كُلِّف محمد ﷺ بتبليغها للعالمين . والسورة كلها كذلك تدور حول هذه القضية ، قضيّة الرسالة وتبليغها للعالمين . ومن أجلها جاء الخطاب في السورة كلها وفي هاتين الآيتين :

﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ** ﴾ : أي إذا فرغت من أيِّ أمر من أمور هذه الرسالة والدعوة ، فلا تتوقف ، ولكن تابع مهمتك وانهض وابذل الجهد في أمر هذه الدعوة، فلا مجال للنبوّة أن تتوقف عن متابعة أمور الدعوة كلها ، فكل أمورها عبادة وطاعة، سواء أكان ذلك بأداء الشعائر بفرائضها ونوافلها ، أم بالبلاغ والدعوة ، أم بالإعداد والبناء والتدريب ، أم بالجهاد في ميدان القتال ، أم باستقبال الوفود من مختلف الأنحاء ، تكاليف ممتدة متصلة مترابطة لترسم نهجاً كاملاً .

وهذه الأمور كلها لا تكون عبادةً حقّاً إلا بإخلاص النيّة لله ، إخلاصاً لا تشوبه شائبة ، تنبع من الرغبة الصادقة واليقين الحق : ﴿ **وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾، نيّة ممتدَّة مع كل عمل ، لا تنفصل عنه ولا تغيب ، توجُّه كامل إلى الله سبحانه وتعالى على نهج ربّاني يضمّ جميع أنواع التكاليف الربّانيّة . فإذا فرغت من الوفاء بأداء تكليف من هذه التكاليف ، فانهض إلى تكليف آخر ، فكل التكاليف عبادة .

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا نام تنام عينه ولا ينام قلبه ، فالدعوة وتبليغها هي الأمانة الكبرى والمسؤولية الأولى ، أمانة ممتدة في حياة المؤمنين يقتدون برسولهم ﷺ لا تشغلهم عنها زخارف الدنيا ولا ما يضعه أعداء الله من مغريات يدفعون بعض المؤمنين إليها ، فيزينونها لهم حتى يحسبوها من أمور الدعوة ، فإذا مضت السنون وطال الأمر ، نظروا بين أيديهم ، فإذا الأمة يغلبها الهوان !

ولذلك جاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ...﴾ [المزمل : ٢٠]

قيام بالليل ، وإعداد وبناء في النهار ، وجهاد وبذل ! لقد كانت حياة المؤمنين في صحبة النبي ﷺ مصنعاً لا يتوقف عن الدعوة والبلاغ ، والبناء والإعداد لجيل مؤمن واحد ، وصف واحد ، وأمة واحدة ، فحقق النصر العظيم ، ليُعَلِّمَ أمته كيف يكون النصر ، وأنه لا يقوم إلا بالصف الواحد غير الممزَّق ، وباتباع ما أُنْزِل من عند الله ، وبالمضيّ على صراط مستقيم واحد جامع .

ويقول ابن عطيّة في تفسيره لهذه الآية : ثمّ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام إذا فرغ من شغل من أشغال النبوّة والعبادة أن ينصب لآخر . ونودّ أن ننوه هنا أن كثيرين من الفقهاء والمفسرين يستخدمون كلمة العبادة بمعنى الشعائر . ونقول إن العبادة هي كل عمل يتوافر فيه إخلاص النية ومطابقة الشرع .

إنّ مهمة النبوّة مهمة عظيمة ، ومسؤولياتها كبيرة خطيرة . ذلك لكل نبيّ أو رسول ، فكيف إذا كان النبيُّ والرسول هو خاتم الأنبياء ، ينقطع الوحيُ بعده، وتكتمل الرسالة به . فلابُدّ أن تمضي مهمة الرسول الخاتم حتى تكتمل الرسالة وتستوفي بناءها ، لتكون للبشريّة كلها على مدار الزمن حتى قيام الساعة . إنها رسالة خاتمة عظيمة لأمر عظيم ، ونبوّة خاتمة عظيمة تقوم بمهمّة عظيمة ، فأنَّى لها أن تغفو أو تسترخي ، ستنهض من مهمة إلى مهمة ، ومن وثبة إلى وثبة : ﴿ **فإذا فرغتَ فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ !

إِنَّ من مُهِمَّة النبوّة الخاتمة ، بالإضافة إلى تبليغ رسالة الله للناس كافة ، بناء الإنسان ، بناء الأجيال المؤمنة ، بناء الأمة المسلمة الواحدة التي ترتبط مع ما بناه الأنبياء والمرسلون السابقون ، ليكون العمل واحداً ، ولتكون الأمة المسلمة واحدة:

فعن جابر وغيره رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ قال : « **مثلي في النبيّين كمثل رجلٍ بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها ، وترك فيها موضع لبِنةٍ لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ، ويعجبون منه ، ويقولون: لو تمّ موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة** ».

[أخرجه أحمد والشيخان والترمذي] [1]

نعم ! ليتكاملَ هذا العملُ ، ولتكون الأمة المسلمة أُمّةً واحدةً ممتدّة مع رسالتها في الأرض كلِّها وفي الزمان كلّه :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٩٢]

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢]

وحتى تمتدّ هذه الأمة المسلمة الواحدة مع الأرض كلها ومع الزمن كله فلا بُدّ أن تكون الرسالة الخاتمة للعالمين ، للناس كافّة ، فكلما ارتبطت مع الرسل والأنبياء من قبل محمد ﷺ ، فإنها ترتبط مع الناس كافّة حين تبلغهم الرسالة :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ : ٢٨]

وكذلك :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

مع كلّ آية في كتاب الله ، ومع كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ ، تنكشف لنا مهمّة بعد مهمّةٍ من مهام الرسول ﷺ وتكاليفه ، فكيف يؤدّي هذه

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٥٨٥٧) .

التكاليف كلها إذا لم يكن ينصَب ويمضي إلى مهمة أخرى ، كلما فرغ من مهمّة !

إنه عملٌ دائب متواصل ، لمتابعة بناء هذه الأمّة المسلمة الواحدة ، لمتابعة بنائها ومتابعة امتدادها ، لتحمل هذه الأمة الرسالة من بعده :

﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

وكذلك :

﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١١٠]

مدرسة النبوّة الخاتمة ، مدرسة جامعة ، مفتوحة أبداً ، لا تغلق أبوابها ، نهجها محدَّد مشرق ، ومناهجها مقرَّرة مدروسة ، انطلقت منها أجيال المؤمنين ، أمّةً مسلمة واحدة مرتبطة مع الأمة المسلمة السابقة ، وترتبط بجهدها مع الأمة المسلمة الممتدّة بعد النبوّة الخاتمة ، لا تنقلب على أعقابها ، ولكنها تظل تبني الأجيال المؤمنة على نهج مدرسة النبوة الخاتمة .

مدرسة النبوّة الخاتمة هي التي تبني الأجيال المؤمنة على مرّ العصور ، لتحمل رسالة الله إلى الناس كافّة ، ولتكون هذه هي مهمّتها الرئيسة ، حتى إذا استوفت البناء والإعداد انطلقت إلى المرحلة الثانية ، ومضت تجاهد لتحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة على صراط مستقيم ، بيّنه الله لنا وفصّله ، وجعله مستقيماً حتى لا يضلَّ عنه أحد ، وجعله واحداً حتى لا يختلف عليه أحد ، صراط مستقيم ممتدٍّ بالأهداف الربّانيّة إلى الهدف الأكبر والأسمى - الدار الآخرة والجنة ورضوان الله .

هذا الصراط المستقيم ، وهذه الأهداف الربانيّة ، وهذا النهج ، نهج مدرسة

النبوّة الخاتمة ، هذا كله يجب أن يجمع المؤمنين أُمّةً مسلمة واحدة ، وصفّاً واحداً ، يتابع مهمة النبوّة ونهجها ومدرستها ، ولا ينقلب على عقبيه .

فإذا ألَمّ بالمسلمين فاجعة أو مُصاب ، فلينظروا في أنفسهم ، هل انقلبوا على أعقابهم ، وخالفوا النهج والدرب ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم المشرق ؟!

إنّ الرسول ﷺ أُسْوةٌ للمؤمنين أبد الدهر ، فهل اقتدى المؤمنون حقّاً بنبيّهم ورسولهم ؟!

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب : ٢١]

فالخطاب في سورة الشرح للرسول ﷺ خطاب للمؤمنين كذلك ، خطاب لهم أبد الدهر ، خطاب للأمة المسلمة الواحدة ، التي كانت خير أمّةٍ أُخرِجت للناس تحمل الرسالة ، وتتابع مهمّة النبوّة ، لا تنقلب على عقبيها ، تبلّغ الرسالة ، وتتعهّد الناس عليها ، وتبني الأجيال المؤمنة ، في عمل متَّصل لا يتوقف ، ولتظلَّ مدرسة النبوّة الخاتمة ماضية مع الدهر .

﴿ فإذا فرغت فانصَبْ . وإلى ربك فارغب ﴾ ، خطاب للمؤمنين العاملين ، للدعاة والعلماء ، وكلٍّ من ينزل ميدان الدعوة الإسلامية . إلى هؤلاء جميعاً يوجّه الخطاب الربّانيّ ، ليعلموا أن أمر هذا الدين ، أمر هذه الدعوة لا يستقيم إلا على أساس هذه القاعدة العظيمة :

﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ . وإلى ربّك فارغبْ ﴾

لا مجال لفسحه وإجازة من هذه المهمة ، فالداعية أو العالم الذي يحمل هذه الأمانة عليه مسؤوليات كثيرة ، وتكاليف ربانيّة كبيرة ، لا يستطيع أن يوفيَ بها إلا إذا التزم هذا الأمر الرباني ، ليكون عمله متصلاً للبلاغ والتعهّد والبناء ، فإذا فرغ من عمل ، فعليه أن ينهض لعمل آخر ، وعليه أن لا يطلب الراحة في الدنيا ، ولا

الاسترخاء فيها ، ويتوجه إلى الله في عمله كله : ﴿ **فإلى ربّك فارغبْ** ﴾ ! وليكون الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين العاملين ، أسوةً للدعاة والعلماء .

بذلك تبقى مدرسة النبوة الخاتمة ممتدّة في واقع المسلمين في كل عصر ، ومع كل حالة ، وتظل القلوب معلّقة بالدار الآخرة ، وتظل رحمة الله تتنزّل على عباده المؤمنين ، ويتنزّل النصر عليهم ويتحقق وعد الله :

﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾

[غافر : ٥١]

وكذلك :

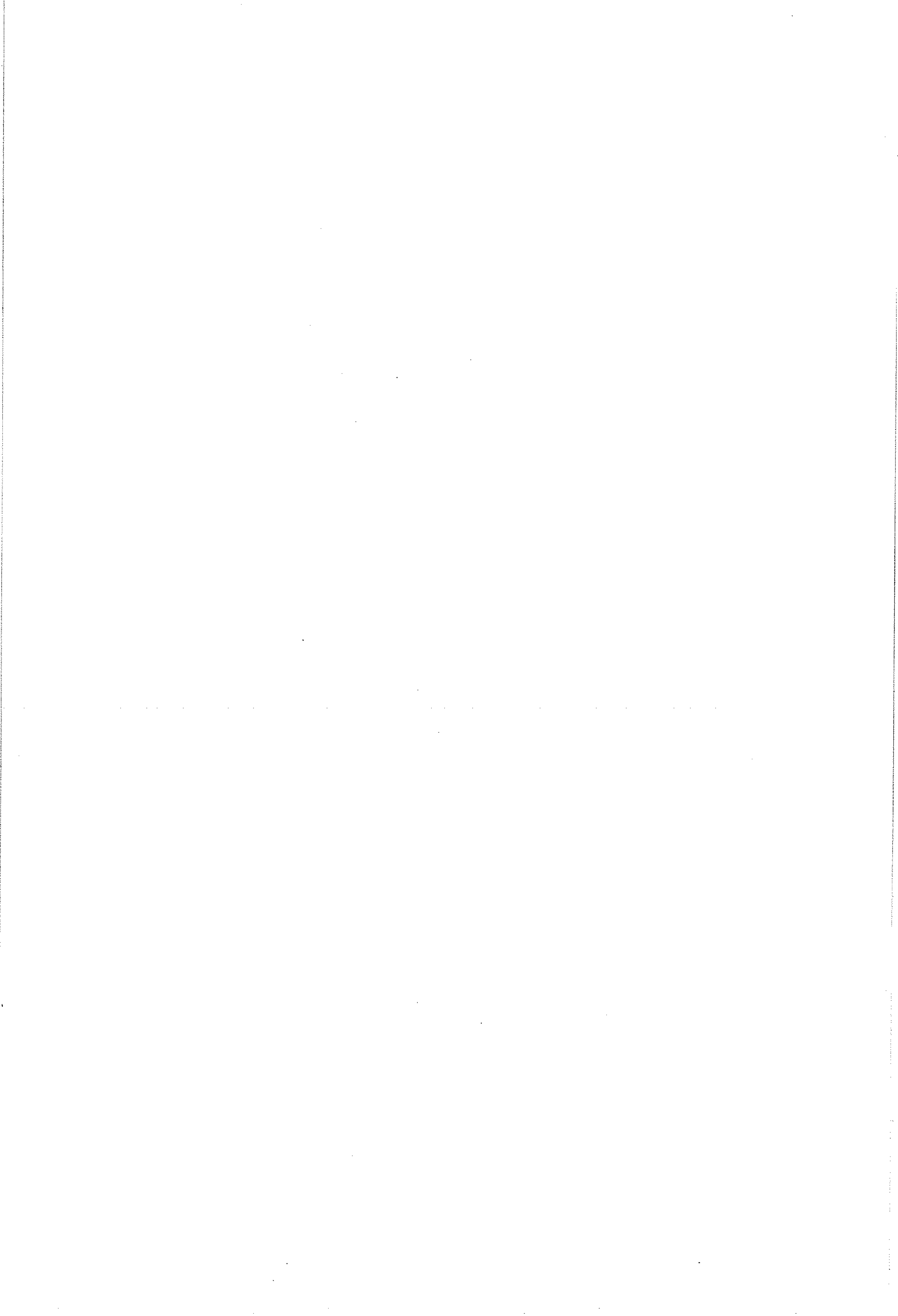
﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾

[يونس : ١٠٣]

فإن نصر المؤمنين وعد حقٌّ من الله سبحانه وتعالى. فإذا نظرنا في واقعنا اليوم، واقع الهزائم والهوان ، وإذا نظرنا في أسباب فاجعة الأندلس وفلسطين وأمثالها في تاريخنا الإسلامي ، نجد أن مدرسة النبوّة الخاتمة توقّفت ، وبناء الأجيال المؤمنة تعطل ، ولم تعد الجهود تخضع لهذه القاعدة الربانيّة : ﴿ **فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب** ﴾ ! ولكن ملأ اللهو حياتهم ، فإذا فرغوا من لهو ، أسرعوا إلى لهو آخر، حتى أخذتهم الفتن ، ونزل بهم عقاب الله .

هل يستطيع المسلمون اليوم أن يعودوا إلى مدرسة محمد ﷺ ، عسى أن يغفر الله لنا ، ويمنّ علينا بالنصر ؟!

هل نستطيع أن نصدق الله بتبليغ دعوته إلى الناس كافة ، نبلّغها كما أُنزلت على محمد ﷺ ، وكلما بلّغنا وتعهدنا نهضنا إلى تبليغ وتعهد لا يشغلنا عن ذلك دنيا ولا زخرف ، لننقذ الناس من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ؟!



(٣)
مع الآية الكريمة
(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ....)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٥]

حتى نفهم هذه الآية الكريمة ونتدبرها لا بدَّ من أن نربطها بالآيات قبلها والآيات بعدها ، وبالآيات التي تتحدّث عن رسالة عيسى عليه السلام والذين آمنوا به واتبعوه في سور مختلفة من كتاب الله تعالى .

ومن الآيات قبلها الآية الكريمة :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣]

ومن الآيات التي تأتي بعد الآية موضع البحث قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٦-٥٧]

وإذا انتقلنا إلى سورة الصف ، نجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤]

وكذلك في سورة المائدة :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]

إنّ القضية الأولى التي يجب أن نقف عندها في الآية الكريمة موضع البحث هي قوله سبحانه وتعالى : **﴿ ... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾** مَنْ همْ : (**... الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ...**) ؟! من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ! ومن الآيات السابقة لها واللاحقة لها ومن آية سورة المائدة وآية سورة الصف ، يتبين لنا أنَّ عيسى عليه السلام كان رسولاً مسلماً والذين اتبعوه وآمنوا معه كانوا مسلمين . لم يكن آنذاك من يسمون « النصارى » ممن اتبعوه .

فهذا قول الحواريين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام واتبعوه :

﴿... قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

وانقسم الناس مع عيسى عليه السلام إلى فريقين : فريق كفر ، وفريق آمن. فالذين آمنوا أعلنوا إيمانهم بأنهم مسلمون ، وأشهدوا الله على ذلك .

وعيسى عليه السلام رسول من عند الله جاء يدعو إلى الإسلام وإلى الإسلام فقط . وكذلك كان حال جميع الأنبياء والمرسلين ، جاؤوا يدعون إلى دين الله الواحد، دين الإسلام : فعند الله ، وعند المسلمين المؤمنين المتقين لا يوجد ديانات ثلاث ولا أربع ، إلا أن تكون ديانات بشريّة لا علاقة لها برسالة الأنبياء والمرسلين .

فهذا إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ

آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧ -٦٨]

وهذا إبراهيم عليه السلام يوصي أبناءه وكذلك وصَّى يعقوب عليه السلام بنيه ، كلهم يوصون وصية واحدة : « أن كونوا مسلمين »:

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢-١٣٣]

وتفصل الآيات الكريمة التالية القضية فصلاً حاسماً :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

[البقرة : ١٣٥-١٣٦]

وهذا نوح عليه السلام :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢]

وهذا موسى عليه السلام ومن آمن معه :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾

[يونس: ٨٤]

وهذا عيسى عليه السلام ومن آمن معه :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١]

وهذه دعوة عيسى عليه السلام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

[آل عمران : ٥١]

وهذه هي دعوة الرسل جميعاً ، دعوة إلى صراط مستقيم واحد ، يجمع المؤمنين المتقين على مدى الدهر كله أمّة مسلمة واحدة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء : ٩٢]

وكذلك :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[آل عمران : ١٩]

وكذلك :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٨٥]

وهذا الدين ، دين الإسلام ، عهد أخذه الله من جميع المرسلين والنبيين ، وميثاق امتدَّ مع الزمن كله ، حتى بعث محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والرسل مصدّقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه ، بعثه الله بالرسالة الخاتمة لهذا الدين العظيم ، دين الإسلام:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[آل عمران : ٨١]

وهذا هو الدين الحق للبشرية كلها ، دين الإسلام ، ليتّبعه الناس جميعاً .

فمن تولّى عن ذلك فقد خسر وضلَّ وفسق :

(فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[آل عمران : ٨٢]

وهذا الدين الحق ، الدين الذي أسلم عليه من في السموات والأرض ، هو الدين الذي لا يحلّ لأحد أن يخرج عنه ، أو يتّبع ديناً غيره :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣]

ولن يقبل الله من أحد ديناً غير هذا الدين ، دين الإسلام ، الدين الواحد من عند الله :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥]

ثمَّ يأمر الله عبده محمداً ﷺ أن يعلن ذلك كله ، ويعلن أنَّ هذا الدين هو دين جميع الرسل والأنبياء لا يفرّق بين أحد منهم وكلهم مسلمون :

﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[آل عمران : ٨٢]

تأكيد بعد تأكيد ، وتذكير وبيان لهذه الحقيقة العظيمة في حياة البشرية كلها منذ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة . بل هي أخطر حقيقةً في حياة الإنسان وأخطر قضيّة . فهي التي تحدّد مصير كل إنسان في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة هي قضية الإيمان والتوحيد ، قضية واحدة ثابتة تقوم عليها السموات والأرض ، والدنيا والآخرة .

ولذلك جاء القرآن الكريم ليبيّن ويفصّل ويؤكد هذه الحقيقة الكبرى التي لها صورة واحدة وبيان واحد ، يتأكد مع كلّ نبيّ ورسول .

إنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والتي وفّر الله لعباده كل وسائل الإيمان بها ، والتزامها : فمن فطرة سليمة ، إلى آيات بيّنات مبثوثة في الكون كله،

إلى رسل مبشرين ومنذرين خُتِموا بمحمد ﷺ ، حتى لا يكون لأحد من خلق الله عذر في أن لا يؤمن :

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : ١٦٥]

إنه دين الواحد الحق ، دين الرسل والأنبياء جميعاً ، دين عيسى عليه السلام، دين الفطرة :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٠-٣٢]

وكذلك يأتي الإنذار الشديد من الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة لمن لم يتبع هذا الدين القيم :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣]

إنها رحمة الله الواسعة على خلقه كلهم أن جعل لهم ديناً حقاً واحداً يتبعونه، ولا يتعبون سواه .

وهل يُعقل أن يبعث الله لعباده أدياناً مختلفة يتصارعون عليها ، ثما يحاسبهم يوم القيامة ؟! وعلى أساس أيّ دين يقوم الحساب يوم القيامة ؟! إنه على أساس الإسلام ، على أساس القرآن الكريم ، مصدّقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق : ٤٥]

نخلص من ذلك كله إلى أنّ الدين عند الله واحد هو الإسلام ، هو دين جميع الرسل

والأنبياء ، هو دين عيسى عليه السلام ، ودين ممن يتّبعهم اتباع صدق ويقين وإيمان .

ولا شكّ أنَّ معنى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

فالذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم المسلمون المؤمنون ، وهم الذين يتبعون من جاء قبله ومن جاء بعده على دين واحد هو الإسلام . فإذا غلب في مرحلة من الزمن أهلُ الضلالة على الناس ، فذلك يعني أنَّ الذين يزعمون أنهم يتبعون عيسى عليه السلام فُتِنوا وضلّوا ولم يتّبعوا دينه الحقّ ، دين الإسلام ، دين الرسل والأنبياء جميعاً ، دين محمد ﷺ الذي بشّر به عيسى عليه السلام .

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف : ٦]

هذا هو امتداد رسالة الإسلام مع الأنبياء والرسل الذين خُتموا بمحمد ﷺ. وهذا هو دين عيسى عليه السلام ، وهذا دين من يتبعه ولا يكفر به ، ولا يحسبنّ أحد إنْ غلبَ بعضُ المشركين في مرحلة من الزمن أنهم غلبوا بادعاء انتسابهم إلى عيسى عليه السلام . القضيّة ليست قضية انتساب ، لكنها قضيّة اتباع ، قضيّة إيمان وتوحيد، وتصديق ويقين . والدين جليٌّ واضح أبد الدهر !

وهذا الوعد لعيسى عليه السلام هو نفسه الوعد الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الصادقين أبد الدهر :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر : ٥١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . [محمد : ٧]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥]

إنه وعد ممتد مع الزمن كله ، مع الرسل كلهم ، وهو الوعد الذي أعطاه الله لعيسى عليه السلام :

﴿ ... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

أما ما يمكن أن يحدث في واقع الحياة على سنن لله ثابتة ، يغلب خلالها قوم على آخرين ، فلا يصدق عليهم وصفُهم بالذين اتبعوا عيسى عليه السلام ، ولا بالذين اتبعوا غيره من الرسل ادعاء لا يقوم على تصديقه الالتزام الأمين والوفاء بالعهد . فأولئك يولّي الله بعضهم بعضاً بما كانوا يكسبون :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

[الأنعام : ١٢٩]

(٤)

مع الآية الكريمة
(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ...)

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر :٣٢-٣٤]

نجد في كتب التفسير اختلافاً غير قليل في فهم هذه الآيات الكريمة وأكثر ما دار حوله الخلاف مفهوم الكلمات التالية : «**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ**» ، «**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**» ، والضمير في كلمة «**منهم**» ، وفي كلمة «**يَدْخُلُونَهَا**»، وكذلك في مفهوم الأصناف الثلاثة : «**ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**» ، «**مُقْتَصِدٌ**» ، «**سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**». وفي الحقيقة فإن هذه الكلمات هي مفاتيح فهم هذه الآيات .

يذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث التي فيها ضعف أو غرابة ، ومع ذلك فهو يقول : « يشدُّ بعضها بعضاً » . ويورد الأحاديث أو الأقوال الموقوفة على بعض الصحابة للآراء المختلفة . فنأخذ نماذج من ذلك :

فعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال :

(أمتي ثلاثة أثلاث ، فثلث يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحَّصون ويكشفون ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده . ويقول الله تعالى : صدقوا ، لا إله إلا أنا ! أدخلوهم الجنّة بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار ...) .

وقال عنه غريب جداً . ويروي هذا الحديث الطبريُّ في تفسيره أثراً عن ابن مسعود . ويذكر آثاراً موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ كلهم مغفور لهم . ويذكر أيضاً عن ابن عباس أثراً آخر يقول فيه : « فمنهم ظالم لنفسه هو كافر » . ويروي الرأي نفسه عن عكرمة وغيره . وعن مجاهد أنه قال : « فمنهم ظالم لنفسه هم أهل المشأمة» .

وعن ابن عباس وقتادة والحسن : «وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها . وعند الإمام أحمد عن الوليد بن العيزار أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدّث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة في الجنّة »! وقال عنه حديث غريب . وعند الطبري هذا أثر موقوف على كعب ومحمد بن الحنفية وأبي إسحق السبيعي .

ويورد الطبري الأثر الموقوف على ابن عباس بأن الأصناف الثلاثة هم من أمة محمد وهم مغفور لهم . ويورد في قول آخر : أن الظالم لنفسه هو المنافق وهو في النار ، والصنفان الآخران في الجنة . ويروي ذلك أيضاً عن قتادة والحسن وغيرهما. وروى أن قتادة قال : « كان الناس ثلاثة منازل في الدنيا ، وثلاثة منازل عند الموت، وثلاثة منازل في الآخرة . أما في الدنيا : فمؤمن ومنافق ومشرك . وأما عند الموت فكما في آخر سورة الواقعة ، وأما في الآخرة فكانوا أزواجاً ثلاثة كما في أول سورة الواقعة .

وعند ابن عطية لا يكاد يخرج عن هذه المعاني إلا أنه قال عن «الذين اصطفينا» يريد بهم أمة محمد ﷺ . ثم يقول : « وكأنّ اللفظ يحتمل أن يُرادَ به جميع المؤمنين من كل أمّة» . وهذا المعنى هو الذي سنوضحه في دراستنا هذه . ويقول : « إلا أن توريث الكتاب لم يكن إلا لأمة محمد ﷺ ، وكأن الله ورّثها الكتاب الذي كان في الأمم قبلهم» .

ولا تخرج كتب التفسير الأخرى عن ذلك . ولكنَّ هذه الصورة المعروضة في هذه الآراء تضطرب مع شدّة الاختلاف وضعف الأحاديث وتناقض الآثار التي لم ترفع إلى الرسول ﷺ ، مما يوحي أن معظم هذه الآراء ووجهات نظر ذاتيّة لا تحمل الحجة القاطعة الجامعة .

من أجل ذلك نحبّ أن نقف مع هذه الآيات الكريمة لنقدّم تصوّراً مبنيّاً على ترابط الآيات مع ما سبقها وما تلاها ومع نهج السورة كلها ، ولنبيّن تناسقها مع نهج القرآن الكريم والآيات في سور أخرى ، وقواعد الإيمان والتوحيد .

نعود أولاً إلى سورة فاطر لندرس نهجها وما تطرقه من موضوعات مترابطة، كانت هذه الآيات موضوعاً من موضوعاتها متناسقة معها .

فالسورة تتحدث أولاً عن فضل الله على الناس جميعاً ، مما يوفّر لهم السبيل ليؤمنوا ولا يكذّبوا الرسل ولا يتبعوا الشيطان . وتُبْرِزُ السورة كذلك بعض آيات الله في الكون مبثوثة للناس كافّة ، ويتكرر الخطاب إلى « الناس » في أكثر من موقع ، نأخذ مثلاً منها :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ [فاطر :١٥-١٧]

ثمّ تعرض السورة امتداد رسالة الله إلى عباده على مرّ القرون ، ديناً واحداً ، تختم رسالاته بالنبيّ الخاتم محمد ﷺ :

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ [فاطر :٢٤-٢٥]

ويتأكد هذا المعنى في آيات كثيرة وسور أخرى من كتاب الله ، حتى يكون قاعدة رئيسة في التفكير الإيماني والتصور . وتتأكد حقيقة أخرى في كتاب الله هي أن

ومن الواضح أن معنى « والذي أوحينا إليك ... « هو القرآن الكريم ، وأما كلمة « من الكتاب « هنا قد تعني الكتاب الأول عند الله الذي يضم الكتب كلها .

ونأتي الآن إلى الآيات الكريمة موضع الدراسة هنا : « ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ... » ! ولقد دار خلاف بين أهل التفسير ، كما ذكرنا حول مفهوم هذه الآية . ونودّ أن نطرح التصور الذي يقوم على أساس النهج الذي عرضناه .

فكلمة « أورثنا » وردت في كتاب الله في أكثر من موضع ، لتعطي المعنى الممتد إلى كل من أنزل الله عليه الكتاب وجعل على الذين اتبعوه مسؤولية الالتزام والتبليغ فنأخذ قبسات من ذلك تضيء لنا المعنى .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر :٥٣-٥٤]

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ... ﴾ [الأعراف :١٦٩]

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى :١٤]

وكلمة « الذين اصطفينا من عبادنا « نجدها ممتدّة كذلك في القرآن الكريم إلى كل من اصطفاه الله فأنزل عليه الوحي والكتاب . ففي سورة النمل تعرض الآيات بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم : موسى ، وداود ، وسليمان ، وصالح ، ولوط ، عليهم السلام ثمّ عقّب القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[النمل : ٥٩]

فالاصطفاء هنا ممتد مع الأنبياء والرسل ، كما ذكرت الآية الكريمة . والله

يصطفي من خلقه ما يشاء :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

[الحج : ٧٥]

والصالحون من أتباع الرسل ممتدون كذلك في مختلف الرسالات كما رأينا في الآية من سورة آل عمران ، وكما نرى في الآية التالية من سورة الأعراف وهي تتحدث مع الآية السابقة لها عن أهل الكتاب :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

[الأعراف : ١٧٠]

وهذه الخصائص التي وردت هنا ، وفي سورة آل عمران ، هي نفسها التي وردت في الآيات (٢٩-٣٢) من سورة فاطر .

والفئات الثلاثة المذكورة في الآية من سورة فاطر : «فمنهم ظالم لنفسه»، «ومنهم مقتصد» ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، كُلها موجودة في أتباع الرسالات السابقة ، الرسالات التي جاءت بدين واحد هو الإسلام .

فالآية الكريمة من سورة فاطر : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه .... » ، تتحدث عن جميع من ورثوا الكتاب ممن اصطفاهم الله من عباده، كما بيّنا في الأدلة من الآيات التي سبق ذكرها ، ممن آمنوا بالرسل واتبعوهم .

وفي سورة « ص » ، تستعرض الآيات قصص بعض رسل الله وأنبيائه الذين أورثوا الكتاب والذين اصطفاهم الله ، ثم تعقّب الآيات على ذلك بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾

[ص : ٤٦-٤٧]

فهؤلاء الأنبياء والرسل جميعاً اصطفاهم الله وأورثهم الكتاب وحملوا

رسالة الله ، فآمن بهم أناس واتبعوهم ، وكفر بهم آخرون . فكان فيهم هذه الفئات الثلاث: ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات . وهؤلاء عسى أن يكونوا ناجين عند الله إلا من مات مشركاً . والله أعلم بعباده ، وهو أعلم بمن مات مشركاً ، أو بما ارتكبوا من ذنوب وآثام ، وبمن يستحق المغفرة من عباده ، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء. فالأمر لله وحده ، لا يملك أحد من البشر أن يصدر شهادات بالمغفرة أو بدخول الجنة . ولكننا نقول بما علمنا الله من أحكام عامة لا ندري على من تنطبق من خلقه . ويؤكد هذا الشمول لمعنى الآية الكريمة من سورة فاطر ، قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة المائدة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[المائدة : ٦٩]

أما قوله سبحانه وتعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ... » ، فإن معنى الظلم موضح في آيات كثيرة ، تحدّد مستوى الظلم ونوعه ، أو تتركه عاماً كما في هذه الآية . وللتيسير نضعها في إطارين : الأول من ارتكب معصية أو إثماً . فهؤلاء على حالين : مقيم على المعصية والإثم حتى مات دون توبة ، أو مقلع عن المعصية بالتوبة والعمل الصالح . فالحالة الأولى أصحابها مرجون لأمر الله ، وأما الحالة الثانية فقد وعدهم الله بالمغفرة إن علم في قلوبهم صدق التوبة . أما الإطار الثاني : فهو من مات مشركاً فلا مغفرة له . والشرك ظلم عظيم ، والنفاق ظلم عظيم ، والمنافقون في

الدرك الأسفل من النار :

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء :٤٨]

ونؤكد أن ما نعلمه من الكتاب والسنة حكم عام ، لا ندري كيف يكون حال هذا العبد أو ذاك يوم القيامة بين يدي الله . فالأمر لله ، هو وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ويظل المؤمن بين الخشية والرجاء .

وكلمة « ثمّ » في قوله سبحانه وتعالى : « ثُمَّ أورثنا الكتاب ... » يمكن أن تعني العطف أكثر منها للترتيب ، كما في قوله سبحانه وتعالى :

(... فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) [يونس :٤٦]

فالله شهيد على ما فعلوه في الدنيا ، وكأن المعنى : « فإلينا مرجعهم والله شهيد على ما يفعلون » .

و نخلص من ذلك ، على أساس هذا العرض ، أن الآيات الكريمة :

« ثمّ أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا ..... » تعرض حقيقة ربّانيّة ثابتة مع جميع العصور ومع جميع الرسل ومن اتبعهم . فمن الذين اتبعوهم من هو ظالم لنفسه ، ويشمل الظلم جميع أنواعه ، فمنه ما يغفر الله عنه إن شاء ، فله الأمر ، ومنه ما لا يغفره الله إذا مات صاحبه عليه ، وأكبره الشرك ، والأمر يومئذ لله يغفر لمن يشاء و يعذّب من يشاء ، على حكمة لله بالغة وعدل حق لا ظلم معه أبداً ، على ميزان رباني قسط .

ثم تأتي الآية الكريمة : « جنات عدن يدخلونها يحلّون فيها ... » ! فمن هم أولئك الذين يدخلونها ؟ ! فلا بد أن تنسجم هذه الآية الكريمة مع سائر الآيات

الكريمة في كتاب الله ، مما هو متعلق بهذا الموضوع ، ومع الأحاديث الشريفة . فجميع الأصناف أو الفئات الثلاث يحتاجون إلى رحمة الله ومغفرته حتى يدخلوا الجنّة . فلا أحد يدخل الجنّة بعمله فقط ، ولكن بعمله ينال رحمة الله ومغفرته فيدخل الجنّة . والمعنى جليّ بالنسبة للفئتين الثانية والثالثة ، فإنهم بعملهم ينالون رحمة الله ومغفرته ، فيدخلون الجنّة . أما الصنف أو الفئة الأولى :

« فمنهم ظالم لنفسه » ، فأمره مختلف لأنه يعتمد على نوع الظلم الذي ظلم به نفسه ، كما بيّنا قبل قليل . ولا نستطيع أن نقول إن « فمنهم ظالم لنفسه » ، من أمة محمد ﷺ وحدهم هم المغفور لهم ، ولا نستطيع أن نقول إن هذه الفئات الثلاث هي في أمة محمد ﷺ وحدها ، فكلهم موجودون في أتباع الرسالات السابقة ، وكلهم ينالون رحمة الله ومغفرته على ميزان رباني حق عادل ، ورحمة الله ومغفرته عامة لعباده المؤمنين في مختلف العصور .

وإذا تميّزت رسالة محمد ﷺ وتميّز أصحابه وتميّزت أمته ، فذلك في أمور غير هذه ، غير الرحمة والمغفرة ودخول الجنة ، فذلك له ميزان عام لجميع المؤمنين من عباد الله من أتباع الرسالات كلها . محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وإمامهم وسيدهم، ورسالته جامعة مهيمنة مصدّقة لما سبقها ، وأصحابه رضي الله عنهم حملوا الرسالة مع نبيّهم وآزروه وما خذلوه ، وخصائص أخرى كثيرة لا مجال لتعدادها هنا ، إلا أن رحمة الله ومغفرته عامّة لعباده كلهم في جميع العصور إلى يوم القيامة على ميزان قسط لا ظلم معه .

ونود الآن أن نطبق هذه الآيات الكريمة على واقعنا . وبصورة خاصة كيف نفهم : « فمنهم ظالم لنفسه ... » في واقع المسلمين اليوم من أمّة محمد ﷺ . فهل كل من ظلم نفسه اليوم من أمة محمد مغفور له مهما كان نوع الظلم ؟ !

إن عدد المنتسبين إلى الإسلام اليوم يقرب من المليار ، على أحوال شتىّ من

درجات الظلم أو الاقتصاد أو المسارعة في الخيرات . فمن المنتسبين إلى الإسلام اليوم من لا يعرفون الإسلام ، ولم يتدبّروا منهاج الله ، ولم ينهضوا لطلب العلم منه كما أمرهم الله ورسوله ، ومنهم من يقضي حياته كلها لا يصلّي ولا يصوم ، ومنهم من يوالي العلمانيّة بشعار الإسلام ، ويتبنّى أفكارهم المخالفة للإسلام صراحة، ومنهم من يدعو إلى العلمانيّة وما يتبعها بدلاً من الدعوة إلى الله ورسوله ، ومنهم المنافقون، ومنهم مرتكبو الآثام والمعاصي والداعون لها والناشرون للفتنة والفساد في الأرض، ومنهم من يوالي أعداء الله ويقف في صف الكافرين في صورة جليّة .

فلننظر إلى عدد المصلين في المساجد حتى لو امتلأت ، فإنهم لا يمثلون إلا نسبة قليلة من المنتسبين إلى الإسلام .

والآيات الكريمة التي تتحدّث عن هذه الفئات ، إنما تتحدّث عن أمّة مسلمة واحدة في صف واحد كالبنيان المرصوص . فما هو حكم الإسلام في التمزّق الحالي بين المسلمين ، وما حكمه في من رضي به أو ساهم في بقائه ولم ينهض لإزالته؟! أين هي الأمّة المسلمة المتراصّة التي تطبّق فيها هذه الآيات الكريمة . إن الأمة المسلمة الواحدة هي أمة محدّدة الخصائص العمليّة المتوافرة في الواقع فإذا انتفت هذه الخصائص فكيف تكون الأمة المسلمة الواحدة ؟! . وتدبر هذه الآيات الكريمة:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[آل عمران : ١١٠]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾

[البيّنة : ٧]

وآيات أخرى كثيرة تبيّن خصائص الإيمان وخصائص الأمة المسلمة الواحدة التي هي خير أمة أخرجت للناس ! أين هي الأمة المسلمة الواحدة بهذه

الخصائص ؟ وكذلك :

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران :١٠٤]

وأين اليوم هذه الأمة المسلمة الواحدة ؟ ! وهل واقع المسلمين اليوم يكشف عن هذه الأمة وعن خصائصها الربانيّة ، أم يكشف عن صورة أخرى تمثلها الآية الكريمة التالية :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٥-١٠٦]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام :١٥٩]

ألا نرى كيف انتشرت العصبيات الجاهليّة وغُرِسَتْ في قلوب كثير من المنتسبين إلى الإسلام ؟ ! ألا نرى مظاهر الوهن والذلّة وضياع ديار المسلمين والحكم بغير ما أنزل الله ، وانتشار الزنى والخمر والفاحشة بصورة علنيّة ؟ !

فما حكم من ظلموا أنفسهم وكانوا في صنف من هذه الأصناف ، ثم ماتوا على ما هم عليه ؟ ! هل كلّ هؤلاء مغفور لهم لأنهم منتسبون إلى الإسلام ، وهل يكفي الانتساب للنجاة من النار ؟ !

كم من الأحاديث الشريفة تبين أن من يصلّي لن تفيده عند الله صلاته وقد علم الله ما في قلبه من نفاق أو شرك أو فساد ؟ ! وكذلك حال بعض الصائمين ؟!

من بين المنتسبين إلى الإسلام من يصدّون عن سبيل الله ، وينحرفون عن

الصراط المستقيم انحراف نهج ، ويؤولون آيات الله تأويلاً على غير ما أُنزلت له .

إن أنواع الأمراض في واقع المسلمين أكثر من أن تحصرها هذه الكلمة الموجزة . لكنها أمراض خطيرة تنذر بخطر كبير في الدنيا والآخرة ، وقد يكون بينها الشرك بجميع أنواعه أو ببعض أنواعه ، مما يعلمه الله في صدور الناس .

لسنا بحاجة اليوم إلى أن نطمئن الناس بعامة أنهم مغفور لهم لأنهم منتسبون إلى أمة محمد ﷺ . إننا بحاجة إلى « **الوقفة الإيمانية** » الصريحة الواضحة ، الوقفة التي دعونا لها منذ أكثر من ثلاثين عاماً دعوة إلحاح ومازلنا ندعو لها ، حتى نعرف أمراضنا بجلاء ، ونضع العلاج قبل فوات الفرصة . إن الواقع خطير ، فلا حاجة لنا إلى أن نخدِّر الناس بأكثر مما هم مخدّرون به . واجبنا هو تنبيه الناس إلى حقيقة الأمراض ، وإلى أبواب العلاج والتوبة عسى الله أن يغفر لنا .

(٥)
مع الآية الكريمة
﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾

« لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » مبدأ عظيم في الإسلام ، لأن الله لا يقبل من عبد إيماناً غير نابع من قلبه ويقينه ، قال الله تعالى :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ × اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٦-٢٥٧]

وقال تعالى :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ....﴾

إنَّ قضيّة الإيمان والتوحيد هي أول قضية تستحق أن يموت المسلم من أجلها ، وجميع القضايا الأخرى يحلّ القتال من أجلها لتكون تلك القضايا نصرة للإيمان والتوحيد في الأرض .

ولكن هذا لا يعني أن من آمن ومن كفر سواء . ولا يعني أن يبقى الأمر متفلّتاً ، ويُترك الناسُ على حالهم ، ثمّ يرضى المسلمون بذلك ، ثمَّ يَدْعون إلى التعاون والتضامن مع واقع لا يرضى الله به ، ولا يقوم المسلمون بما أمرهم الله به من البلاغ ومحاولة تغيير الواقع بكل الوسائل الممكنة ، حتى إذا وجب القتال وأمكن قاتلوا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة : ١١١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**).

[رواه الشيخان عن ابن عمر والنسائي عن أبي بكرة وابن ماجه والحاكم عن أبي هُريرة]

وهذا حديث متواتر ، وكذلك رواه الشيخان رواية أخرى عن أبي هريرة .

وإن الناس لتقاتل اليوم من أجل عرضَ من الدنيا ، ولا يجدون في ذلك غضاضة ، ويمضي القتال دون دعوة إلى الله ورسوله ، ويسوّغ الناس هذا القتال. أمّا القتال في الإسلام فهو امتداد للدعوة والبلاغ والبيان على ضوء الواقع بشروط مفصَّلة في الكتاب والسنّة ، حتى يصبح القتال في مرحلة الدعوة ضرورة وحكمة تسوق الموعظة والعبرة للناس جميعاً ، وفرضاً واجباً أمر به الله تعالى .

« **لا إكراه في الدين** » نعم ! حين تكون الدعوة إلى الله ورسوله ماضية جادة تبليغاً بكل الوسائل الممكنة المتوافرة . إنها تعني واجب القيام بالدعوة والبلاغ والبيان ، « **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ....** » ! وكيف يتبيَّن الرُّشد من الغيِّ للناس إلا بالدعوة الواضحة الجليَّة الحاسمة التي تكون فيها قضيَّة الإيمان والتوحيد كما جاءت في الكتاب والسنَّة هي القضيَّة الأولى ، وهي مدار الدعوة والبلاغ ، لا يُشغل عنها الدُّعاة ولا يُنْزِلونها منزلةً أقلَّ من منزلتها الحقيقية ، ولا تغيب في طيّات الشعارات والتنافس على الدنيا والشقاق والصِّراع .

إنَّ العلاقة مع الآخرين من غير المسلمين يجب أن تبتدئ بالدعوة الواضحة الجليَّة بأطيب الأساليب وأنجعها . إنها لا تبتدئ بالقتال ولا بالعداء ولا بالسباب والشتائم . ولكنها في الوقت نفسه لا تتوقَّف ولا تُماري تحت شعار التعارف

والتضامن والمبادئ الإنسانيَّة والأخوَّة الإنسانيَّة التي يرفعها البعض لتكون مساوية لأخوَّة الإيمان .

« **لا إكراه في الدين** » ! نعم ! وعلى الإنسان نفسه أن يتخذ القرار حين يسمع الحق ، فيؤمن أو يكفر . إنها مسؤولية كلّ إنسان أن يتخذ قراره هذا ، ثمَّ يتحمَّل مسؤولية قراره ونتائجه ، وهي مسؤولية عظيمة ونتائج خطيرة . ولنستمع إلى الآيات الكريمة تبيّن لنا النتائج الخطيرة لما يُتَّخذ من قرار :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : ٢٩-٣١]

هذه هي القاعدة الربَّانيَّة بوضوح وجلاء ودقّة : (**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ...**)! وعلى هذه القاعدة الربَّانيَّة تبنى سائر الخطوات والنتائج .

ثمَّ تأتي القاعدة الثانية : (**... فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...**)! ليكون القرار ذاتيّاً ، نابعاً من الإنسان نفسه ، دون إكراه ! ثمَّ ليتحمَّل الإنسان نفسه نتائج قراره ، النتائج المختلفة في الحالتين ، حالة الكفر أو حالة الإيمان .

أما النتيجة في حالة الكفر :

﴿ ... إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... ﴾ !

والنتيجة في حالة الإيمان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ...﴾ !

وشتَّان بين النتيجتين . « **فلا إكراه في الدين** » لا تعني أن تتوقف الدعوة إلى الدين الحق ، ولا تعني التنازل عن أيِّ جزءٍ منه ، ولا تعني المراء أو المساومة أو الانحراف ، ولا تعني تبنِّي الاشتراكية والديمقراطية والعلمانية والدعوة إليها .

إنها الدعوة الربَّانيَّة . إنَّها قول الحق والبلاغ الحق . إنَّها البيان الفاصل الحاسم الجليّ ، لا يُرافقه تردَّد ولا وهن .

وهذا واضح بأنَّ الإسلام لا يرضى بالكفر ولا الشرك ولا الانحراف عن الصَّراط المستقيم ، مما يمكن أن يكون واقعاً في الحياة :

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر : ٧]

وتتوالى الآيات والأحاديث تؤكد هذه القضيَّة العظيمة التي هي أخطر قضية في الكون وفي حياة الناس كافَّة . وجعل الله للكافر نتيجة وللمؤمن نتيجة ، وجعل الإنسان يتحمَّل مسؤوليّة قراره ، وتمضي عليه سنن الله وقضاؤه وقدره في الدنيا والآخرة .

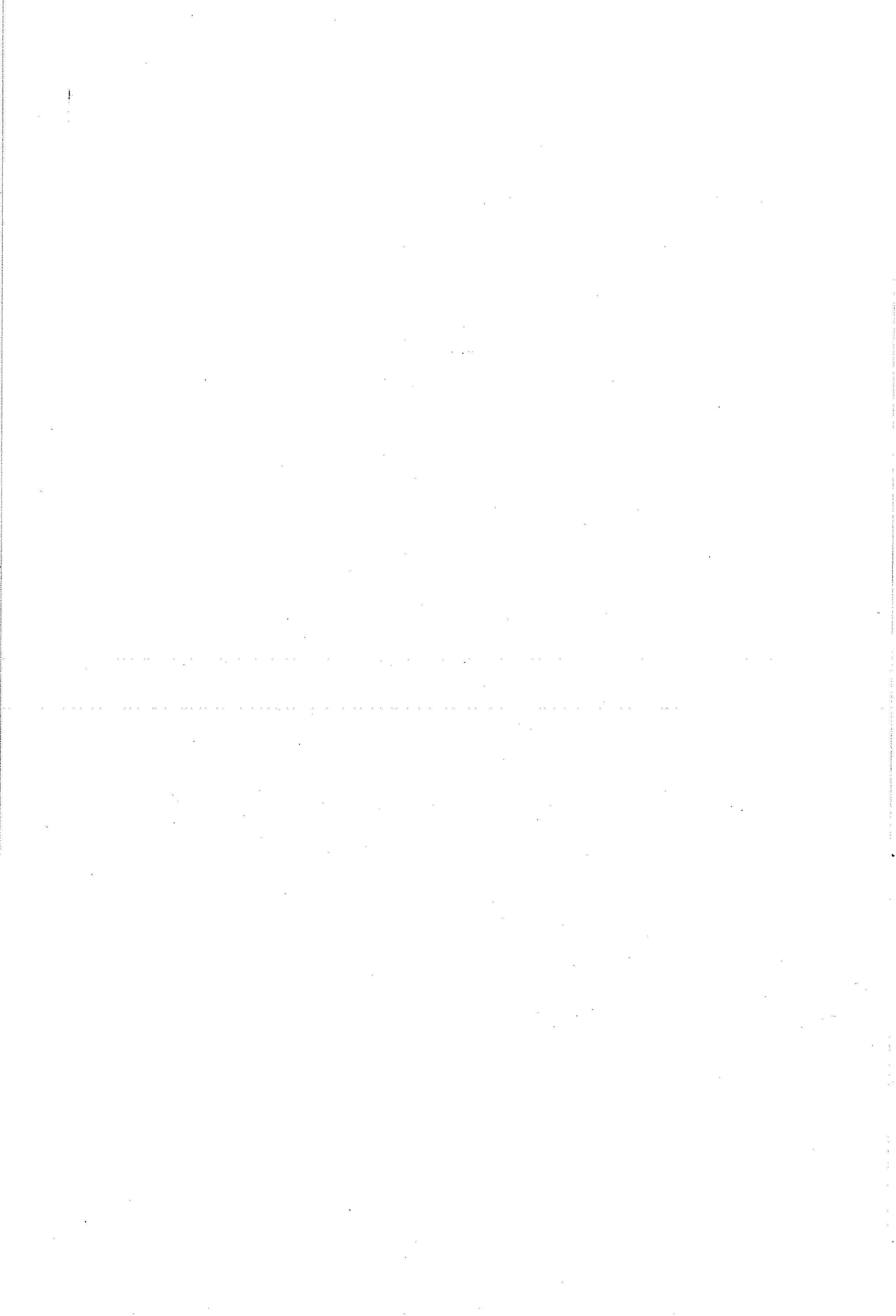
وحين نكون دعاة فإننا نبلّغ رسالة الله ، ولا نبلّغ أهواءنا ورغباتنا ومصالحنا. إننا ندعو الناس إلى الإيمان الصادق والتوحيد الصافي حين نكون دعاةً . فإذا لم نفعل ذلك ، وخضنا مع النَّاس في كلِّ مشكلات الدنيا إلا قضيّة الإيمان والتوحيد، فعلى أيّ أساس نكون دعاة ؟! كيف نكون دعاة إلى الله ورسوله ، كما يأمرنا الله ورسوله، حين نملأ نوادينا وساحاتنا بالدعوة إلى الديمقراطية حيناً والاشتراكية حيناً آخر ، وإلى العلمانيَّة حيناً آخر ، ويصبح الإسلام شعاراً يُغلِّفُ هذه الدعوات .

وحين نكون قضاةً فإننا نردُّ ما نجابه من أحداث إلى منهاج الله ، نردُّ الواقع وأحداثه إلى منهاج الله ، كلٌّ في حدود وسعه ومسؤوليته ، ردًّا أميناً قائماً على صدق الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، وصدق العلم بالواقع من خلال منهاج الله ، فنقضي عندئذ ، كلٌّ في حدود وسعه ومسؤوليته ، بما يعترضنا من أحداث ، ولا نقضي على أساس الهوى والمصالح الدنيوية مغلّفين ذلك كله بشعارات الإسلام .

إننا يجب أن نحكم على الاشتراكية كما يقدمها أهلها ، والعلمانية كما يقدمها أهلها ، وغير ذلك من المذاهب ، على أساس من الكتاب والسنَّة .

إننا يجب أن نقضي على أساس الكتاب والسنَّة بعلاقاتنا مع غير المسلمين، قضاء مصاحباً للدعوة والبلاغ . لا ندعو إلى الحقد والجفوة والظلم والعدوان . ولكن نعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه كما بيّنه لنا الإسلام ونقضي بذلك .

إننا قضاة بالنسبة لقضيّة فلسطين . لنردَّها إلى منهاج الله كما أمرنا الله، ولنكون في الوقت نفسه دعاة إلى الله ورسوله . وكم من المواقف لم يكن بعض المسلمين فيها لا دعاة ولا قضاة ! إننا قضاة لنقول لمن يعلن كفره بالله إنه كافر وعلاقتنا معه يحدِّدها الإسلام على أساس فكره وعقيدته ودينه . فقد حدَّد الإسلام هذه العلاقات تحديداً ربَّانيّاً بعيداً عن الأهواء والشهوات والمصالح الماديَّة الآنيَّة المسيطرة الطاغية، المصالح التي تسنُّ التشريع والقانون لحماية مصالح العدوان والمجرمين في الأرض.



(٦)

مع الآية الكريمة
(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ...)

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[النحل : ١٢٥]

يطلق كثير من المسلمين هذه الآية الكريمة حجّة لهم في موقع غير موقعها ليسوّغوا عجزاً أو تنازلاً أو عدم تقدير حقيقي لعظمة هذه الآية الكريمة وشدة ارتباطها مع كامل منهاج الله في تناسق وإعجاز مع يُسْر للناس في فهمها وتدبرها.

إن الآية الكريمة تمثّل حقّاً مطلقاً جاء من عند الله وحياً على محمد صلى الله عليه وسلم . وستظل هذه الآية الكريمة غنيّة الممارسة والتطبيق في كل واقع بشري. ولنفهم الآية الكريمة ونتدبرها يجب أن نفهم القضيّة التي تعالجها .

إن الآية تبتدئ بعرض القضية والموضوع : (**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ...**). هذه هي القضية التي تتحدث عنها هذه الآية الكريمة متناسقة مع جميع الآيات الأُخرى في القرآن الكريم ، الآيات التي تتحدث عن هذه القضية وأساليبها ووسائلها . إنها قضيّة الدعوة والإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، إلى دين الله الحق ـ الإسلام ـ ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ومن عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو . إن هذه القضية تمثل القضية الكبرى في الكون والحياة ، القضيّة التي من أجلها بعث الله الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ ، وبالقرآن الكريم الذي جاء مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . إنها تمثل الهدف الرّبانيّ الثابت الأول في حياة المسلم وفي مسيرة الدعوة الإسلامية . ومن أجل هذه القضية تقوم الدعوة الإسلامية في الأرض لإنقاذ

الناس من عذاب الدار الآخرة لمن يموت على الشرك أو الكفر ، ولإنقاذ الناس من فتنة الدنيا .

القضية التي تدور حولها الآية والآيات التي قبلها وبعدها هي قضية دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد . ومن أجل هذا الهدف العظيم تتحدّد علاقة المسلم بسائر الناس على ضوء قواعد ربّانية يفصّلها منهاج الله .

إن التوجيه في هذه الآية هو للداعية العامل ، الداعية المجاهد الذي عرف دربه وهدفه ، وعرف عهده مع الله ليكون الحافز الدائم ليمضي على الدرب يبلّغ رسالة الله .

فمن أجل ذلك جاء التوجيه الرباني (.. بالحكمة والموعظة الحسنة ..) . هذه هي القاعدة الأولى الهامة ، أن تكون الدعوة بالحكمة أولاً ، باختيار الأسلوب الأمثل المليء بالحكمة لتبليغ رسالة الله واضحة جليّة دون مواربة ولا تنازلات ولا مساومات . لا يحلّ للداعية المسلم أن يغيّر أو يبدل دين الله ، وفي الأساليب التي بيّنها منهاج الله ، ثم يقول : إن هذا التغيير أو التنازل هو من باب الحكمة .

والحكمة هي في بعض الآيات تعني ما أُنزل من عند الله ، وفي أخرى يكون معناها الجامع : فقه الموهبة المؤمنة والمسؤولية والأمانة .

وهنا يحاول بعض المسلمين أن يقرّب الإسلام من العلمانية مدّعياً أن تقريبهما هو من باب الحكمة ، أو ضرورات الواقع ، أو المصلحة العامة التي يتوهمها .

إن أسلوب الحكمة نستطيع أن نفهمه من كتاب الله نفسه ، ومن هذه الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى : (والموعظة الحسنة) والموعظة هي أن تبيّن لهم عظمة الإسلام والإيمان وقوة ثباتك أيها الداعية المسلم عليه . والموعظة الحسنة هي: الوضوح في الكلمة المؤمنة الطيبة ، والصدق فيها ، حتى لا يكون هنالك مجال لسوء الفهم أو التغرير . إنها تتأكد بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ... ﴾ [البقرة : ٨٣]

وبقوله تعالى :

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

[الحج :٢٤]

يجمع الله سبحانه وتعالى معاني (قولوا حسناً) ، (الطيب من القول) ، (الموعظة الحسنة) ، (صراط الحميد) ، وغير ذلك من الآيات الكريمة ، بقوله الجامع في آية جامعة :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت :٣٣]

إنها آية جامعة لكل ما سبق ، مفصِّلة لمعنى : بالحكمة والموعظة الحسنة ، وغير ذلك مما ذكرناه سابقاً . إنها تجمع ذلك في ثلاث قضايا أو خطوات : أولاً : (... دعا إلى الله ..) : أن تكون الدعوة إلى الله هي جوهر العلاقة دون تغيير ولا تبديل ، ودون تمويه ولا مماراة ، ودون ضعف أو تردد . ثانياً (... وعمل صالحاً ..)، حتى يرى الناس أن قولك مطابق لعملك ، وأنك ملتزم بما تقتضيه دعوة الناس إلى الله : كلمة ونهجاً وتطبيقاً ، ليروا الإسلام ليس في الكلمات ولكن ليروه في واقع الحياة حيّاً ناطقاً بالحق . ثالثاً (... وقال إنني من المسلمين) : إنه الوضوح والجلاء وإعلان الهُويَّة لمن تدعوه ، حتى يطمئنّ إلى صدقك واستقامتك ، وأنك تعلن الحق ولا تتنازل عن شيء منه أبداً ، وترفض الباطل ولا تقبل منه شيئاً .

إن اللحظة التي يتنازل فيها الداعية عن شيء من الحق ، أو يقبل فيها شيئاً من الباطل ، تكون دعوته قد انتهت وسقطت وخسر الموقف كله ، وفتح الباب لشياطين الإنس والجنّ أن تلج وتتسلل ، ثم تمتد وتقوى ، وإذا الداعية المسلم أصبح يدعو بدعوة هؤلاء تحت شعار (الحكمة) ! إذا به يدعو إلى الحداثة أو العلمانية أو

الديمقراطية أو الاشتراكية ، كل ذلك بدعوى الحكمة والموعظة الحسنة .

الأمثلة على ذلك كثيرة : داعية مسلم يدعو في قلب أمريكا إلى الديمقراطية، وداعية مسلم ينتقل من بلد إلى بلد ، يبذل جهده وماله ووقته ليبيّن للناس فضائل الديمقراطية (لأنها المثل الذي يحتذى) ، ولا يتطرّق إلى الإسلام ودعوته ، وداعية ينتقل ليبيّن للناس أنه (لا خلاف بين مقصود الشريعة الإسلامية والعَلمانية) ، وداعية مسلم يحتضن (الاشتراكيين) ويتنازل لهم ويسكت عن بعض مناهجهم المنحرفة ، فإذا هو راضٍ عنها أو داعية لها . ذلك لأنّ الشيطان يُزيّن للإنسان سوء عمله حتى يراه حسناً دون أن يشعر أنه مخطئ . إنه أمر طبيعي ! إن الحق يرفض أن يُتنازل عنه أو عن شيء منه أو أن يتجزأ ، لأنه عزيز قوي من عند الله ، وإن الحق يرفض أن يُشرَك معه باطل ، لأن الحق من عند الله والباطل من الشيطان وأَعدائه .

ليس أمام الداعية المسلم إلا سبيل واحدة :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨]

نعم : (أدعو إلى الله) ! ، وليس إلى غيره ، أبلغ رسالة الله إلى الناس ، نعم: (على بصيرة) ! ، على إيمان ويقين ، ونهج واضح ودرب جليّ ، وأهداف مشرقة لا انحراف عنها !

(أنا ومن اتبعني) ! فالمؤمنون أمة واحدة تمضي على سبيل واحدة إلى أهداف واحدة ، تنزيهاً لله دون شرك أبداً .

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أبداً أن لا تدعو إلى الله ، أو أن تعطّل الدعوة إلى الله بالانشغال عنها بما هو أقل منها شأناً عند الله ، أو تُفرِّق الدعوة أجزاءً غير مترابطة لا تكون نهجاً متصلاً ولا سبيلاً ممتداً : (قل هذه سبيلي) ! فالأمر من الله جَليٌّ حاسم : (ادعُ إلى ربّك ..) ! بلّغ رسالة الله إلى الناس !

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن تدعو إلى شيء من (دون الله)، ولا إلى أمر من (دون الله) . فقد جاء النهي من الله عن ذلك جلياً حاسماً :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس :١٠٦]

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨]

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٠]

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن لا تبلّغ رسالة الله كاملة ، كما أُنْزلتْ من عند الله ، أو أن تخفي منها شيئاً ، مداراة لوهم قذفه الشيطان في نفسك ، أو ظنّاً منك أنك بإخفاء شيء من رسالة الله أو تحويره تبلغ هدفك ، فالله أعلم ولقد جاء أمره جلياً حاسماً :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة :٦٧]

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

[الكهف : ٢٩]

إنك أيها الداعية المسلم إن أخفيت شيئاً خسرت أمرين : خسرت احترام مَنْ تدعوه ، لأنه يعرف دينك الذي لا يؤمن هو به ، ويعرف أنك غيّرت وبدّلت. وخسرت رضاء الله وعونه ونصره ، فما النصر إلا من عند الله .

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن تخالف أمر الله وما أوحى به إلى عبده ورسوله محمد ﷺ ، أن تخالف ذلك إلى هواك واجتهادك البشري على غير

أساس من دين الله . فلقد جاء أمر الله جليّاً حاسماً :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٩]

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢]

ليس من الحكمة أن نُصَوِّر الإسلام أنه دين المسالمة والمساومة والتنازلات كي نركن إلى من لا يؤمن بالله ، أو انحرف عن دين الله ، أو دعا إلى غير الله ، أو افترى على الله كذباً وادَّعى باطلاً أو أخفى وبدَّل وغيَّر ، ولا هو من الحكمة أن نخفي ما فرضه الله نصاً صريحاً في الكتاب والسنة من عدم موالاة المشركين والكافرين والمنافقين ، أو نخفي ما أمر الله به من جهاد في سبيل الله . ليس من الحكمة أن نخفي ما بيّنه الله للناس ، ولا أن نركن إلى الظالمين ، فقد جاء الأمر من عند الله جلياً حاسماً في كل ذلك ، وأمر المؤمنين بالصبر على ما يلقونه في سبيل الله :

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[هود : ١١١-١١٢]

وكذلك فإنه ليس من الحكمة أن يُتَّهم الإسلام بأنَّه دين العدوان والظلم ، بادعاء باطل يقوم على تأويل فاسد للجهاد في سبيل الله ، لإلصاق الجريمة بالمسلمين، ويُخفَى بعد ذلك أن الإسلام دين الحقِّ والعدل ، ودين الرحمة والعزّة والقوة ، وأن الحقَّ والعدل والرحمة والعزَّة لا تحقّق في الأرض إلا بالجهاد في سبيل الله .

إنَّ أساس الحكمة والموعظة الحسنة أَن نبلّغ رسالة الله كما أُنزلتْ على محمد ﷺ، لا نخفي شيئاً ولا نبدّل ولا نغيّر . ذلك لأن الموازنة في كتاب الله معجزة كلّ الإعجاز، لا نستطيع بلوغها إلا باتباعها ، ولا نستطيع بلوغها إذا لم نبلّغ الإسلام بتكامله

ووضوحه ، أو إذا بلّغنا جزءاً وحذفنا جزءاً ، أو إذا قبلنا باطلاً فذلك ما يسعى إليه المجرمون في الأرض ، منذ النبوة الخاتمة ليفتنوا المؤمنين عما أُوحي إلى محمد ﷺ :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

[الإسراء : ٧٣-٧٥]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة :١٥٩]

وكذلك :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

[البقرة : ١٤٦-١٤٧]

إذن نستطيع أن نفهم ما هي الحكمة والموعظة الحسنة في طريق الدعوة إلى الله من كتاب الله ومن سنة نبيه محمد ﷺ . ولقد أتينا بقبسات فقط ، لأننا لا نستطيع أن نعرض هنا كل ما جاء في منهاج الله ، فلا بد للمسلم أن يعود إلى منهاج الله عودة صادقة ليرى الصورة الجليّة بتكاملها وترابطها وتناسقها .

ثم يأتي الأمر الثاني من عند الله : (**وجادلهم بالتي هي أحسن**) ! نعم! يجب مجادلتهم بالتي هي أحسن ، ذلك والمسلم الداعية قائم بالدعوة إلى الله ، يبلغ رسالة الله بتكاملها ، يعرض الحق لا يتنازل عن شيء منه أبداً ، ويرفض الباطل ولا يقبل منه شيئاً أبداً . إذاً ، وهو في طريق الدعوة ، يدعو ويبلّغ ، قد يضطر إلى

المجادلة، ليعرض حجّته بأسلوب مشرق صادق واضح مقنع . الأسلوب الحسن في الجدال نفهمه كذلك من كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، كما بيّنا قبل قليل. الأسلوب الحسن هو الوضوح والجلاء ، والصدق والبيان ، والحجّة القويّة المقنعة ، تعرض الحقَّ وترفض الباطل ، وليطابق القول العمل ، وذلك كله بأدب وخلق ، بالكلمة الطيِّبة ، والعمل الصالح .

ويعلمنا القرآن الكريم جميع الجوانب (وجادلهم بالتي هي أحسن) ، وحدودها وأسلوبها ، وبصورة عملية جليّة . فلنأخذ قبسات من ذلك :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦]

هذه هي الحدود : (.. إلا الذين ظلموا منهم ..) والظالمون هم الذين يدعون إلى باطل ويصرّون عليه ، والذين يعتدون ويظلمون الناس ، والكافرون والمنافقون ، الذين يفسدون في الأرض .

وهذا هو الأسلوب الأحسن : (.. **وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**) إنه الصدق والحق والوضوح، بأدب عالٍ وبيان وخلق . ليس الأسلوب الأحسن أن نقول إننا عَلمانيون، أو أن علمانيتكم قريبة من ديننا ، ولا ديمقراطيتكم هي من الإسلام ، والحداثة من الإسلام ، والاشتراكية من الإسلام ، وعدد ما شئت ، ثم تقول إن ذلك كله من الإسلام . ولو فعلنا ذلك لما عرفَ الناس عندئذ ما هو الإسلام في وسط هذا الخليط المضطرب ، ولا ما هي حقيقته ! وانظر كيف يعلمنا الله ممارسة الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن :

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : ٦٠ـ٦٢]

فهل هنالك أبلغ من هذا الدرس العظيم ، إلا أن يكون درساً آخر من كتاب الله ، فاستمع إلى درس ثانٍ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤]

وضوح وجلاء ، وقول فصل حاسم ، بأعلى درجات الخلق والقول الحسن والحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن . واستمع أيضاً إلى أدب الجدال الحسن في صورة تطبيقية عملية :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٥ـ٦٨]

وضوح وجلاء ، قول فصل حاسم ، حجّة بالغة تخاطب النفس والعقل، لتبلِّغ الحقَّ لا باطل معه ولا شوائب . موقف حاسم لا مساومة فيه ولا محاولة لتقريب الحق من الباطل أو الباطل من الحق ، إذْ لا لقاء بينهما أبداً .

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة تعرض لنا الحكمة والموعظة الحسنة

والقول الحاسم عندما ينتهي دور الجدل والجدال :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة : ٤-٥]

مواقف كثيرة نتعلم منها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، كيف يجب أن نمضي في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، إلى الله ورسوله ، وكيف تكون الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

إن هذه القواعد الربانيّة يجب التزامها لتكون نهجاً متصلاً واعياً في حياة المؤمن الداعية ، سواء أكان يدعو كافراً ومشركاً ، أو أحداً من أهل الكتاب ، أو رجلاً منتسباً إلى الإسلام فيه انحراف وضلالة في بعض جوانب فكره كما يبدو للناس . لابدّ من الوضوح والجلاء والقول الحاسم والحجة البالغة المقنعة ، ولابد للداعية أن يلتزم هو أولاً ما يدعو إليه ، ليكون قوله مطابقاً لموقفه وعمله .

قد يتسلّل إلى صفوف المؤمنين علمانيون واشتراكيون وديمقراطيون أو مشركون في حقيقتهم . ثم يُخْفون ذلك حتى تلوح لهم الفرصة فيكشفوا عن حقيقتهم، ويبدؤوا ينشرون الفتنة بين المسلمين . ألم نر كيف أن حزباً أصولياً إسلامياً يعلن أن لا يدعى بإسلامي وأنه علمانيّ بكل معنى الكلمة ؟ ! إنها صدمة نفسيّة أن نرى هذا الحشد الذي كان منتسباً إلى الإسلام حتى اعتُبر من الأصوليين، أعلن عن انتمائه العلماني وانتمائه إلى أوروبا ! وربما هناك آخرون ألبسوا علمانيّتهم وشِرْكهم

قطعة رقيقة من الإسلام ، شعاراً إسلامياً يخفي الحقيقة العلمانية أو الشرك. وقد يقول بعضهم إن هذا مجرد « تكتيك » ، ولكنه تكتيكاً لا ندري من يخدع به ، أي يخدع نفسه ، أم المسلمين ، أم العلمانيين ، أم كل أولئك ؟

لقد كشف واقعنا بالأمثلة الحيّة أن أيّ تنازل من الداعية عما يؤمن به ، وقبوله ببعض ما يرفضه مداراة للطرف الآخر ، بدعوى أنه قبول مرحليّ وتنازل مرحلي ، حتى يتألف القلوب ، إن أي تنازل مثل هذا فتح ثغرات واسعة في صفّ المسلمين ، تسلل منها الطرف الآخر بدعوته ورسالته ، فإذا المسلم الذي كان يرفض (الحداثة) مثلاً ، أصبح بعد تنازله يسكت عن أخطاء الحداثة ، ثم أصبح يألفها ، ثم أصبح يدعو لها ، بعد أن زيّن له الشيطان ذلك بالخطأ أو الانحراف :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

[محمد : ١٤]

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

[فاطر : ٨]

وكذلك كان شأن من تنازل للديمقراطية عن حقائق الإسلام ، حتى أصبح داعية للديمقراطية في كل موطن باسم الإسلام ونسي أمر الله سبحانه وتعالى : (ادعُ إلى سبيل ربك ..) .

وكذلك صار بعض المسلمين يملؤون الندوات بالدعوة إلى الاشتراكية حين كانت أيام مواسمها ، وكذلك صار بعض الدعاة المسلمين دعاةً إلى العلمانيّة بصورة ظاهرة واضحة ، في الندوات والمؤتمرات الإسلامية !

والذين أخذوا يُمارُون النصارى ودعاة النصرانيّة ويُوادّونهم ، فَيَسْمعون منهم دون أن يُسْمعوهم ، بحجة (الحكمة) دون الدعوة إلى الله ورسوله ، ودون الموعظة الحسنة ، فما لبث بعضهم أن وجد نفسه يألف ما يدعونه إليه من باطل ،

ويغيب عنه الحق الأبلج في الإسلام ، ولا يجد حوله من يوقظه أو يعظه ، فإذا هو تارك لدينه ، مرتم في شرك وضلالة أهلك نفسه بها .

إنها الخطوة الأولى دائماً ، ثم تتلوها الخطوات . الخطوة الأولى التي يزيِّنها الشيطان هي السكوت عما يؤمن به المسلم الداعية أو ما يدّعي أنه يؤمن به ، السكوت عما يؤمن أنه حق فلا يدعو ولا يبلغ ، وإنما يصمت ويستمع .

وتأتي الخطوة الثانية التي يزيّنها الشيطان حين يقبل المسلم بعض ما يدعو إليه الطرف الآخر بحجة الحكمة وتألف القلوب والاحتضان . وطرف يعلن رأيه بوضوح وقوة وتصميم غير عابي بودّك أيها الداعية المسلم ، أو يتظاهر بودك حينا، وأنت صامت لا تبلّغ دعوتك ولا رأيك الحق ، فماذا تتوقع أن تكون النتيجة ؟ كيف تسكت والأمر من عند الله مدوٍّ في الكون كله :

وقل الحقُّ من ربكم ... !

ادع إلى سبيل ربك ... !

أيها المسلمون ! قولوا الحق وادعوا إلى سبيل ربكم ، وبلّغوا رسالة الله إلى الناس كما أنزلت على محمد ﷺ ، افعلوا ذلك ثم تحدّثوا عن الحكمة والموعظة الحسنة!

(٧)

مع الآية الكريمة
(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

إن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن للناس كافة ، وبعث محمداً ﷺ خاتم النبيين رحمةً للعالمين ، للناس كافة ، للإنس والجنّ . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده جميعهم أن يؤمنوا به وأن يعبدوه وحده لا يُشركون به شيئاً . ولذلك أنزل الله هذا القرآن الكريم وجعله مُيَسَّراً للذكر ، للتلاوة والتدبّر والالتزام ، للناس كافة ، وليس لقوم دون قوم . فكيف كان هذا التيسير للذكر ؟! وما هي خصائص هذا التيسير .

لابد أن نذكُر أنَّ الله قد بعث قبل النبوّة الخاتمة في كلِّ أمّةٍ رسولاً يدعو إلى رسالة التوحيد ، إلى دين الإسلام ، دين جميع الأنبياء والرسل :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦]

وجاءت آيات أخرى وأحاديث تثبّت هذا المعنى ، حتى أصبحت حقائق الإيمان والتوحيد ثابتة في التاريخ البشريّ ، لا يُحرِّفُها إلا الضّالّون . وكان كلُّ نبيٍّ يُرْسل بلسان قومه ليبيّن لهم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤]

وتتابع الرسل مع الزمن كله منذ نوح عليه السلام في كلّ أمة يحملون ديناً واحداً من عند الله ، كان كله بحكمة بالغة من الله سبحانه وتعالى ، حتى لا يبقى لأحد عذر في عدم اتباع هذا الدين الواحد ، دين الإسلام :

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : ١٦٥]

إذن ثبتت الرسالة في التاريخ البشريّ ثبوتاً يقطع الحجة على الناس كلهم إن أدبروا ولم يتّبعوا .

فجاءت الرسالة الخاتمة مصدّقة لما بينها ومهيمنة عليه ، والبشريّة كلها لديها علم سابق بهذا الدين الحنيف بما بعث الله من رسولٍ في كلّ أمة . فلم يكن الرسول ﷺ بدعاً من الرسل :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأحقاق : ٩]

فلعل هذا التاريخ الطويل من الرسل كان رحمةً من الله بعباده ، وتمهيداً لمجيء الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ، وليكون ذلك بفضل الله ورحمته تيسيراً للرسالة الخاتمة ، وليحمل القرآن الكريم باباً من أبواب التيسير . ولكنه ليس التيسير الوحيد. فرحمة الله ظلت ممتدة مع هذه الرسالة الخاتمة والكتاب الخاتم والرسول الخاتم لتوفّر أساب التيسير جميعها ، لأنه أنزل للناس جميعاً ، للبشرية كلها .

يقول ابن عطيّة في تفسيره : « يسّرنا القرآن » معناه سهّلناه وقرّبناه ، «للذكر» أي للحفظ عن ظهر قلب . وقال ابن جبير : لم يُسْتظهرْ من كتب الله تعالى سوى القرآن الكريم . وقال القاضي أبو محمد رحمه الله : يُسِّر بما فيه من حسْنِ النظم وشرف المعنى ، فله لوطة « إلصاق » بالقلوب وامتزاج بالعقول السليمة .

ويقول ابن كثير في تفسيره : سهلنا لفظه ويسّرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[ص : ٢٩]

وكما قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾

[مريم : ٩٧]

وقال الضحاك عن ابن عباس : لولا أن يسّر تلاوته الله على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلّم بكلام الله عزّ وجلّ . قلتُ ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدّم عن النبي ﷺ أنه قال : « إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ... » .

وفي تفسير الطبري يقول عن التيسير الذي عَنَتْهُ هذه الآية الكريمة : سَهّلنا القرآن ، بيّناه وفصّلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ، وهوّناه .

ولا شكّ أن هذه التأويلات حقيقة . فقد سَهّل الله تلاوته وبيّنه وفصّله .

ولكنْ هناك نقاط نودّ أن نثيرها بصدد هذا التيسير العظيم الذي منّ الله به علينا في تلاوة القرآن الكريم وتدبّره وحفظه وبُغيَة ممارسته في واقع الحياة ، كلٌّ قدر وسعه الصادق الذي سيحاسبه الله عليه يوم القيامة ، يوم يضع الله الموازين القسط.

النقطة الأولى :

هي أنّ الله أنزل هذا القرآن الكريم للناس كافّة ، لأنّ الناس كلّهم مكلفون بالإيمان والتوحيد وعبادة الله وحده دون شرك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر : ٤١]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

النقطة الثانية :

هي أن هذا القرآن معجز كلّ الإعجاز ، معجز للبشر والجن جميعهم ، فلو اجتمعوا كلهم ليأتوا بمثل هذا القرآن ما قدروا على ذلك :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء :٨٨]

النقطة الثالثة :

هي أن من آيات إعجازه أن جعله الله مُيَسَّراً للذكر ، ووفَّر في إعجازه هذا التيسير للناس كافة .

النقطة الرابعة :

هي أن جعل الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم مفتاحين ، من حازهما وجد التيسير في كتاب الله - وفتحه الله له ويسّره عليه للذكر . وهذان المفتاحان هما : صفاء الإيمان وصدقه ، ومعرفة اللغة العربيّة وإتقانها . ولقد بيَّنَ لنا الله سبحانه وتعالى حقيقة هذين المفتاحين في كتابه الكريم .

أما صفاء الإيمان وصدقه ، فقد توالت الآيات الكريمة توضح هذا الأمر العظيم وتبيّنه ، وتبيّن أثره في فهم القرآن وتدبره والسعي لممارسته في الواقع البشري.

فمن هذه الآيات الكريمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥]

وكذلك :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٤٦]

وكذلك :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ [الإسراء : ٨٢]

وكذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ [الكهف : ٥٧]

وكذلك :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فُصّلت : ٤٤]

نلاحظ من هذه الآيات كم أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى الهام في كتابه الكريم ، على أنها حقيقة ربّانيّة يريد الله سبحانه وتعالى أن تثبت في القلوب والنفوس. ومحورها أن القرآن الكريم تُفْتَح معانيه للمؤمنين ، فيَسِّره الله لهم للذكر ، ليكون لهم هدى وشفاءً . وأما الكافرون فيجعل الله في قلوبهم أكنّة تحول دون فهمهم لكتاب الله ، ويجعل في آذنهم وقراً يحول دون بلوغ آيات الله إلى مسامعهم وقلوبهم ، فلا يجدونه ميسَّراً ، وذلك بكفرهم وإصرارهم على الكفر .

فصَفاء الإيمان شرط ليكون القرآن الكريم مُيَسَّراً للذكر. وهذا هو المفتاح الأول.

أما المفتاح الثاني : فهو معرفة اللغة العربية وإتقانها ، فقد أكد الله سبحانه وتعالى لعباده هذه الحقيقة في كتابه الكريم بآيات كثيرة :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣]

فكتابُ الله لا يكون قرآناً يُتَعَبَّد به إلا باللغة العربيّة ، فإن تُرْجِم فهو ليس كلام الله ولا تصِحُّ به العبادة ، ولا تكون معانيه دقيقة كما أرادها الله ، وإنما هو محاولة لتفسير معانيه بجهد بشريّ لمن لا يعرف اللغة العربية . وفي هذه الحالة يفقد صفة الإعجاز الكاملة بعد أن أصبح جهداً بشريّاً . ومن هنا تصبح معرفة اللغة العربيّة شرطاً لفهم كتاب الله ، وشرطاً للعبادة ، وشرطاً لتوافر صفة التيسير التي جعلها الله في كتابه الكريم .

وكذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف :٢]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٧]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : ١١٣]

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٧، ٢٨]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣]

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣]

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧]

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الاحقاق : ١٢]

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥]

فلقد اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لتكون لغة الرسالة الخاتمة، لغة الوحي ، لغة القرآن ، لغة النبوة . لقد كانت قبل ذلك لغة خاصة بالعرب ، ولكنها مع الوحي المتنزل بها أصبحت لغة كل مسلم ، لغة الأمة المسلمة مهما امتدت واتسعت، لغة الإنسان . ذلك لأن فيها من الخصائص ما لا يتوافر بأي لغة أخرى.

ولقد تطورت هذه اللغة حتى أخذت شكلها الحالي ببيانها وبلاغتها ، وبقواعدها ونحوها وصرفها ، وعروضها وأوزان شعرها وقوافيه ، فبلغت أعلى درجات النضج والنمو والتطور ، لتثبت عليه، ولتكون لغة الأجيال المؤمنة الممتدّة إلى يوم القيامة ، ليتيسَّر لهم جميعاً تلاوة القرآن وتدبّره وحفظه ، ولتظل نعمة الله ورحمته بتيسير القرآن للذكر ممتدة مع الزمن كله .

وبدراسة الآيات الكريمة التي سبق ذكرها ندرك حقيقة التأكيد الذي أراده الله سبحانه وتعالى بتكرار هذا المعنى والوظيفة للغة العربية ، آيةً بعد آية ، لتبرز هذه الحقيقة العظيمة .

وربما كانت اللغة العربية في مراحلها المختلفة في تاريخ نموها وتطورها لغة الأنبياء والمرسلين الذين ظهروا في الجزيرة العربيّة ، وربما خارجها ، حتى كانت لغة النبيّ الخاتم محمد ﷺ ، وهي في ذروة نضجها وتطورها . ومن الثابت أن لغة النبي صالح عليه السلام وقومه ثمود كانت اللغة العربية في مرحلة من مراحل نموها [(١)].

وربطت الآياتُ الكريمةُ السابقةُ فهمَ القرآن الكريم وتدبّره وعقْلَهُ باللغة العربية وحدها : « لعلكم تعقلون » ، وربطت الآيات الكريمة النذرَ والوعيدَ ، والتذكيرَ ، وبابَ التقوى : « لعلهم يتقون » ، وباب التذكير : « لعلهم يتذكرون »، وباب البشرى والإحسان : « ... **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** »!

وهذه الخصائص كلها تحملها اللغة العربيّة بلسان عربيٍّ مبين ، خصائص

(١) يراجع كتاب لماذا اللغة العربية للدكتور عدنان النحوي .

تحملها اللغة العربيّة للبشريّة كلها ، لكل قوم ، للإنس والجن ، لتقدّم بهذه الخصائص التيسير الذي أراده الله سبحانه وتعالى ليكون في كتابه الكريم .

فهذان هما المفتاحان لكتاب الله : صفاء الإيمان وصدقه ، واللغة العربية ، كما بيّنت لنا الآيات الكريمة ، وبهما وبما يوفران من الخصائص ينشأ التيسير لتلاوة القرآن الكريم وتدبره وحفظه وممارسته . إنها نعمة كبيرة من الله !

النقطة الخامسة : معنى الذكر ومداه :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » ! فهذا هو هدف التيسير الذي يريده الله سبحانه وتعالى . ولا شك أن أول معاني الذكر في هذه الآية الكريمة هو تلاوته وتدبره . ولكن لا يقف الأمر عند ذلك ، ولا يكون معنى الذكر قد استُكْمِل بذلك، ولكن يمتد معنى « الذكر » إلى حفظه وممارسته في واقع الحياة . والممارسة الإيمانية المطلوبة لا تتم إلا بعد التلاوة الصادقة والتدبّر الأمين والحفظ ، على أن يكون هذا في حدود الوسع الصادق الذي وهبه الله لهذا الإنسان وذاك ، والذي سيحاسبه الله عليه يوم القيامة .

ولا يحمل القرآن الكريم من التكاليف إلا ما هو في حدود الوسع الصادق . وقد خلق الله عباده وهو أعلم بالوسع الصادق لكل إنسان . فمن ادّعى عجزه عن تكليف هو في حدود وسعه الصادق ، فإنما جَعَل لنفسه وسعاً كاذباً لن ينجيه عند الله ، فالله أعلم بما شرع من تكاليف وبما وهب من وسع لكل إنسان :

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾
[المؤمنون : ٦٢]

فهو الكتاب الذي يُبيِّن فيه وسع كلِّ إنسان ، وسعه الصادق وما يُطيق وما لا يُطيق ، ولا يُظْلَمُ أحد عند الله .

وكذلك :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ... ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وكيف يكون هنالك ذكر لكتاب الله إذا لم تكن هناك ممارسة إيمانيّة في واقع الحياة ، ممارسة قائمة على صفاء الإيمان وصدق العلم بمنهاج الله ـ قرآناً وسنّة ولغةً عربيّة ـ . ، ونابعة من حسن التلاوة وسلامة التدبر وأمانة الحفظ كلٌّ قدر وسعه الصادق .

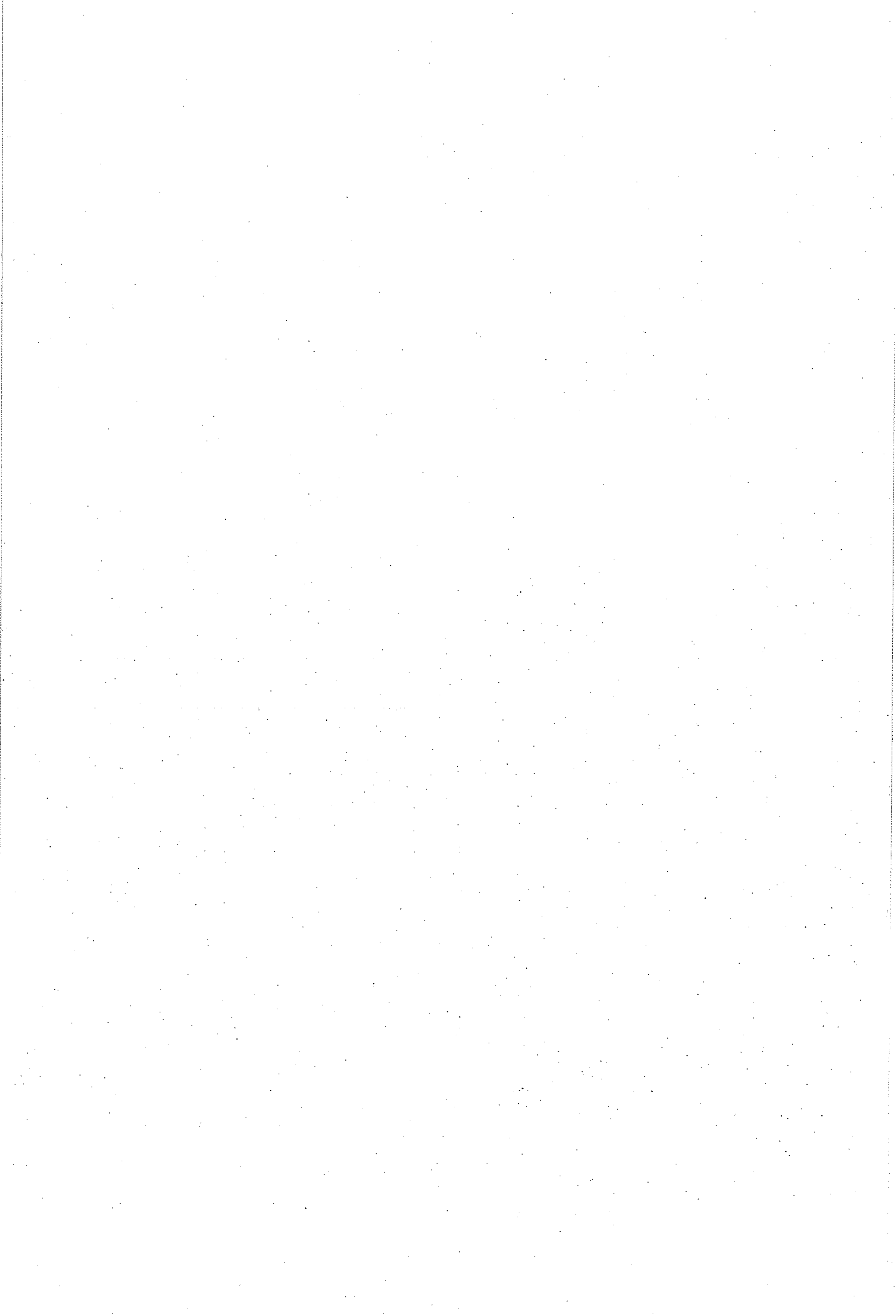
النقطة السادسة : فهل من مدَّكر ؟!

الله سبحانه وتعالى يخاطب الإنسان ، الناس جميعاً ، ويقول أنزلت لكم هذا القرآن العظيم ، وبعثت لكم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ويسّرت لكم تلاوته وتدبّره وحفظه لتعملوا به وتمارسوه في واقع الحياة ، أنزلت لكم هذه النعم لتتذكروا فضل الله عليكم ورحمته وعقابه ، وتنهضوا إلى ما أمركم به ، فهل منكم من أحد ينهض يتذكر فضل الله هذا ويستجيب لأمر الله ؟!

ويظلّ هذا النداء مدوّياً في الكون ، يقرع الآذان والقلوب ، ليتوب من يتوب الله عليه ، ويُدْبر من كتب الله عليه الضلالة .

اللهم اهدنا واهدِ قلوبنا واشرح صدورنا وأنرْ بصائرنا وأعنا على ما كلفتنا به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم !

والحمد لله رب العالمين



(٨)

مع الآية الكريمة
(... وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ...)

إن بعض الناس يسيئون فهم هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف :٢٩-٣١]

ونعتقد أن سبب سوء الفهم لدى بعضهم أنهم يأخذون من هذه الآيات سطراً واحداً يكتفون به ويعزلونه عن سائر نصّ الآيات الكريمة إنهم يأخذون فقط قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا ... ﴾ ، ثم يقولون إن الإسلام سمح بحرّية الفكر وحرّية الدين ، وأصبح من حق الإنسان إن شاء فليؤمن ، وإن شاء فليكفر ... ! حرّية مفتوحة حسب ظنهم الخاطئ .

الواجب أن يؤخذ النصّ بتكامله وترابطه وتناسقه . فإن جزءاً من النصّ لا يعطي المعنى المقصود كاملاً .

النقطة الأولى التي يجب إثارتها والتنبيه إليها هي أن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يكون الإيمان نابعاً من فطرة الإنسان ، ومن يقينه الذاتي ، مستكملاً شروط الإيمان ، لا أن يكون قد أعلن إيمانه خوفاً أو كرها أو نفاقاً ، فلذلك لا يقبل عند الله أبداً .

الإيمان الحق مسؤوليّة كبيرة ، والإيمان الحق أخطر قضية في حياة الإنسان ، وهو يمثل الحقيقة الكبرى في الحياة والكون ، يقوم عليها الكون كله والحياة كلها ، ويرتبط بها مصير الإنسان ، كلٌّ مصيره ، في الحياة الدنيا ، وفي الموت وبعد الموت .

إنها القضية التي غرسها الله في فطرة الإنسان السليمة لا يشوّهها أو يُغطي عليها إلا الآثام والمعاصي وفساد الفطرة . وهي القضية التي جعل الله لها آيات بيّنات في السموات والأرض وفي أنفسنا ، لتكون دالة بيّنة على أن الله حق ، ومن أجلها بُعِث الرسل والأنبياء على مدار التاريخ ، في كل أمة ، حتى لا يكون لأحد من الناس عذر في كفر أو شرك ، أو حجة عند الله يوم القيامة .

لذلك كله يجب أن يكون الإيمان ذاتيّاً يقيناً نابعاً من داخل الإنسان ، من فطرته وقلبه ونفسه وقناعته الكاملة لا يعتورها أيّ شك ، بغَير ذلك لا يكون الإيمان إيماناً مقبولاً عند الله . لا يقبل الله إيمان نفاق أو كره أو خوف ، يظهره الإنسان ليدفع عنه أذى أو يكسب فيه دنيا زائلة . ولذلك جاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة :٢٥٦]

فالآيات السابقة من سورة الكهف لم تترك قضية الإيمان والتوحيد متفلّتة ، وإنما ربطتها بقواعد ربانيّة متماسكة متناسقة ، نوجزها بما يلي :

أولاً : ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ...** ﴾ ! أي وجوب الدعوة والبلاغ ، بلاغ الحق والدعوة إليه . إنه تبليغ رسالة الله كما أُنزلتْ على محمد ﷺ إلى الناس كافّة تبليغاً واضحاً جليّاً منهجيّاً ، وتعهّدهم عليها تعهّداً منهجياً كذلك . والمضيّ بذلك دون تراخ !

يجب أن تَبْلُغَ الدعوةُ الإسلاميةُ كلَّ إنسان وكلَّ شعب ، وهذا واجب

المسلمين جميعاً حين يستجيبون لأمر الله وأمر رسوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة :٦٧]

وكذلك :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[النحل :١٢٥]

وآيات كريمة أخرى وأحاديث شريفة تلحُّ بهذه القضية لتجعلها واجب كل مسلم قادر مؤمن جمع العلم الحق من منهاج الله ليبلّغه إلى الناس كافّة في حدود وسعه وطاقته ، ولو أوفى المسلمون بمسؤولياتهم الشرعية والتكاليف الربانية لبلغت الدعوة الناس كافة .

وبعد ذلك تصبح المسؤولية مسؤوليّة الإنسان المبلّغ نفسه ، ويصبح من واجبه : أن يفكّر بما بَلَغَه وما سَمِعه ، ثم يتّخذ قراره من ذاته ، ثم يتحمل مسؤوليّة قراره . إنها أعظم مسؤوليّة يتحملّها الإنسان ويحاسَب عليها ، وإنها أخطر قضيّة في حياته كلها ، تقرّر مصيره في الدنيا والآخرة !

ولذلك جاء بعد قوله سُبحانه وتعالى : ﴿ **... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...** ﴾ ، جاء قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **... إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ !

نعم ! هذا جزاء من اختار الكفر بنفسه ، واتخذ قراره ، فيتحمل عندئذ مسؤولية هذا القرار بأنه سيكون من أهل النار . وربما يحدّثه كفره بأنه لا يوجد نار

ولا جهنم دون أن يكون لديه دليل . فماذا يكون شأنه بعد الموت إذا وجد أن البعث حق ، والجنّة حق والنار حق وأنه من أصحاب النار . فماذا يفيده ظنّه الكاذب عندئذ وقد رأى الحقيقة التي لا نكران لها . حقيقة ماثلة أمامه لا يستطيع دفعها وقد أصبح لا حول له ولا قوة له :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

[المؤمنون : ٩٩-١٠١]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام :٢٧]

وكذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام :٣٠]

هذا جزاء من كفر واتخذ قراره بذلك فليتحمل مسؤولية قراره الذي بُني على الظن الكاذب لا بيّنة لديه عليه .

أما من اتخذ قرار بالإيمان فإنه سينال جزاء قراره ذلك من نعيم وجنة ومغفرة من الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف :٣٠-٣١]

هؤلاء الذين آمنوا لقد استجابوا لفطرتهم السليمة التي فطرهم الله عليها ، فطرة الدين الحق حنيفاً :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الروم : ٣٠]

وكذلك فإنهم صدّقوا الرسل الذين جاءوا جميعهم بدين واحد من عند الله، دين الله الحق ، دين الإسلام :

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥]

وكذلك فإنهم رأوا آيات الله المبثوثة في الكون كله ، آيات بيّنات دالة على وجود الله ، وأن الله حق .

هؤلاء استجابوا للفطرة التي فطرهم الله عليها ، وللرسل الذين بعثهم الله وختموا بالرسول الخاتم محمد ﷺ ، ورأوا الآيات البينات المبثوثة في الكون ، فهداهم الله بذلك إلى الإيمان الحق .

إذن هما فريقان ، كلّ فريق كان له كامل الحرّية أن يختار الإيمان أو الكفر ، ثم يتحمل مسؤولية قراره . فلا حرّية دون مسؤولية ، ولا مسؤولية دون حرّية ، وهذا هو الإسلام والإيمان ، يريده الله أن ينبع من قلب الإنسان ، من ذاته ، من فطرته التي فطره الله عليها .

هذا هو الإسلام : حرّية ومسؤولية وحساب ! مسؤولية في الدنيا والآخرة.

ونلاحظ في الآيات الكريمة من سورة الكهف كيف يكون العذاب يوم القيامة للكافرين . والله أعلم بعباده ، وأعلم بمن آمن حقّاً وبمن كفر ظالماً نفسه بعد أن يسّر الله جميع أسباب الهداية ، حتى لا يكون لأحد يوم القيامة حجّة أو عذر

في كفر وضلالة .

إن الله حق ، عادل ، لا يظلم أبداً فقد حرّم الظلم على نفسه وجعله محرّماً بين عباده . والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء والآيات بينات !

والحياة تمضي على سنن لله ثابتة ، بقضاء نافذ وقد غالب وحكمة بالغة . وقد لا ندرك كلَّ حكمة الله في سننه الماضية الثابتة ، ولكنها في جميع الأحوال حكمة ربانيّة بالغة ملؤها الحق والعدل والرحمة .

(٩)

مع الآية الكريمة

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ...﴾

المتقين والمحسنين وصفاتهم وخصائص التقوى والإحسان

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

[آل عمران :١٣٣-١٣٦]

هذه الآيات الكريمة تعرّف لنا « المتقين » حسب ميزان الإسلام والإيمان والمنهاج الرباني . أولها الإنفاق في السراء والضرّاء ، وثانيهما كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان ، والثالثة أنهم إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله ، واستغفروا لذنوبهم ، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ... !

ولقد كتب الله على بني آدم الخطأ ، فكل بني آدم خطّاء كما جاء في الحديث الشريف :

عن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال :

« كلُّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابين »

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم] (١)

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ٤٥١٥) .

وكلمة خطّاء تفيد كثرة الخطأ ، وكلمة توّاب تفيد كثرة التوبة حتى الإقلاع عن الخطأ : ﴿ ... **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وهذه الآية الكريمة والحديث الشريف لا يدعوان إلى ارتكاب الخطأ ، ولكن يجعلان للمؤمن مخرجاً من ذنب أصابه أو خطأ ارتكبه حتى لو كان فاحشة منهيّاً عنها : والأمر بعد ذلك لله يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ، على موازين قسط يوم القيامة لا تظلم نفس شيئاً ولو كان مثقال حبّة من خردل :

﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء :٤٧]

إنها موازين قسط يضعها الله ، تزن كل عمل الإنسان وزناً دقيقاً لا يطغى شيء على شيء ، ولا عمل على عمل ، مهما كان صغيراً ، فله دوره في الموازين القسط، فيبقى المؤمن على وجل من أمره حتى يُقْطى فيه يوم القيامة القضاء الحق .

لكنها بشرى للمتقين الذين يستحقون هذه التسمية لكثرة التزامهم جانب التقوى في حياتهم ، وقد يصيبون شيئاً من الخطأ ، ولكن الخط العام لحياتهم هو التقوى وطاعة الله والتزام شرعه .

وتتكرر في كتاب الله وفي الأحاديث الشريفة هذه البشريات للمؤمنين ، تمدهم بالقوة والثبات على الحق ، مع كثرة التوبة والاستغفار ، والإقلاع عن الخطأ .

واستمع إلى هذه الآية الكريمة :

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ**

السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

[الزمر :٥٣-٥٧]

بشرى من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ، وتوجيه ربّاني عظيم .

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

« **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا . يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فتسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحر . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ إلا نفسه** »

[رواه مسلم في كتاب البر والترمذي في الرقائق] (1)

ونقف مع هذه الآية الكريمة لنتدبّر معناها :

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(1) الترمذي : ٣٨/ ٤٨/ ٢٤٩٥ وقال : هذا حديث حسن .

أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[الزمر :٣٤-٣٥]

تدور الآيتان حول « المحسنين » كما دارت الآية السابقة الثانية (٣٥): ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ... ﴾ وكذلك : ﴿ ... وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فإن التعبير الأول ﴿ ... أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ... ﴾ يشير إلى خطأ أو إثم ارتُكبَ وانتهى ولم يحمل صفة الاستمرار . بينما يشير التعبير الثاني : ﴿ ... بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إلى عمل مستمرٍّ عليه صاحبه ، ﴿... كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾! فإنه عمل يدوم عليه صاحبه ومستمر فيه . وهذه صفة رئيسة من صفات المتّقين والمحسنين .

فالتقيّ قد يقع في الخطأ أو الإثم ، ثمّ يقلع عنه بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى . إنه عَملٌ عَمِلَهُ وانقطع عنه ، فجاء التعبير : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ... ﴾ ! والتقيّ يعمل العمل الصالح ويستمر عليه ، فيداوم على الصلاة وسائر أوجه الشعائر ، يذكر الله ويداوم على الذكر ، ويستغفر الله ويداوم على الاستغفار ، فجاء التعبير عن ذلك : ﴿ ... وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . إنه تعبير متميّز من التعبير الأول بأنه يحمل صفة المداومة والاستمرار . فلنلاحظ الفرق بين التعبيرين : « عملاً » ، « وكانوا يعملون » .

ويتكرر هذا التعبير في سورة العنكبوت كذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[العنكبوت :٧]

والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والسيئات التي أقلع عنها المؤمن ولم يصرَّ

على عملها ، واستغفر وتاب وأناب ، ثمّ مضى على صراط مستقيم يوفي بالأمانة قدر جهده واستطاعته .

والمؤمن التقيّ المحسن يظل بين حالتين : حالة الاطمئنان وحالة الخشية والخوف . فإذا ذكر الله ورحمته اطمأنّ قلبه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

[الرعد ٢٨-٢٩]

فالشرط الأول هو الإيمان بالله وعدم الشرك به ، ثمّ ذكر الله ورحمته واللجوء إليه . هناك يطمئنّ قلب المؤمن بإيمانه وتوبته وبذكر الله .

أما الحالة الثانية ، حالة الخشية من الله حين يذكر ذنوبه وأخطاءه ، ويخشى عذاب الله أو عدم مغفرته . فالمؤمن لا يدرك جميع أخطائه وذنوبه ، فقد يعلم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء ، ولكن الله هو الذي يعلم كلَّ شيء ويقيم الوزن الحق والجزاء الحق . فيظل المؤمن مع هذه الذكرى في خشية من الله وعذابه ، خشية تدفعه إلى مداومة الاستغفار والتوبة والدُّعاء إلى الله واللجوء إليه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ . وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

[المؤمنون :٥٧-٦٢]

أولئك هم المتقون المحسنون يَظلُّون بين حالتين من حالات الإيمان :

– حالة الخشية من الله والإشفاق منها .

– حالة الاطمئنان .

وتتكرر هذه الخصائص في سورة الأنفال في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢]

وتمتد خصائص الإيمان والإحسان في كتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ ، وتُفَصَّل تفصيلاً كاملاً ، لتُبيِّن لنا صفات المؤمن وخصائِصَه في نفسه ومع نفسه، وفي أسرته وبيته ، وفي العمل والسعي كله ، وفي الصدقة والزكاة والإنفاق ، في الشعائر كلها، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي الإدارة وسائر ميادين الحياة .

ومن أجل ذلك نذكّر بأن الإيمان والإسلام لا يتمثّلان في قضية واحدة ويعزلان في سائر القضايا . كلاّ ! إنه منهاج رباني متكامل مترابط متناسق يجب أن يؤخذ على تكامله وترابطه وتناسقه ، ويمارس في واقع الحياة وفي جميع ميادينها على هذا الأساس من التكامل والترابط والتناسق . ولا يحِلُّ أخذ جزء من كتاب الله وإنكار باقي الأجزاء ، ولا يستقيم أمر هذا الدين العظيم في واقع الحياة إلا حين يؤخذ بتكامله :

﴿ ... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥]

إنّ الله سبحانه وتعالى قد يغفر لمن يشاء ذنوبه جميعها إلا ذنباً عظيماً واحداً إذا مات عليه الإنسان دون أن يتوب منه دخل النار . ذلك الإثم والذنب هو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فلا إثمَ أعظم من ذلك ، ولا فتنة في الأرض أخطر من ذلك ، وهذا قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء :١١٦]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء :٤٨]

ذلك لأن التوحيد الصادق الصافي أمر تقوم عليه السموات والأرض والكون كله ، والشرك يفسد الحياة ويظلم فيها ظلماً كبيراً .

وهذا لقمان يقول لابنه وهو يعظه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان :١٣]

ولا ظلم أعظم من الشرك بالله ، فكأنما الكون كله يضطرب بالشرك ، وتفسد الحياة ، ويمتد الظلم من ميدان إلى ميدان . إن الشرك بالله لظلم كبير وجريمة كبيرة وفساد واسع .

ولذلك يسَّر الله لعباده ما يدفع عنهم هذا الفساد والظلم ، وما يقرّبهم إلى حقيقة الإيمان والتوحيد حتى لا يكون لأحد من خلقه عذر في شرك أو كفر . فقد جعل الإيمان والتوحيد فطرة في الإنسان يولد عليها ، لا يفسدها إلا الآثام والمعاصي، ويظل الإيمان والتوحيد فيها ما دامت سليمةً نقيّةً كما خلقها الله :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم :٣٠-٣٢]

إن انتشار المعاصي والفساد والآثام في أي أرض يفسد الفطرة في الناس ويفسد الإيمان والتوحيد ، فينزل الله عذابه وابتلاءه حتى يتوب الناس ويعودوا إلى

التوحيد الخالص ، وإلا يعمّ عذاب الله وابتلاؤه .

وكان من رحمة الله بعباده أن جعل آياته الدالة على وحدانيته وربوبيّته مبثوثة في الكون كلِّه : في السماء والأرض ، وفي أنفسنا ، آيات بيّنات :

﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** ﴾ [الذاريات : ٢٠-٢٣]

وامتدّت رحمة الله بعباده بأن بعث لهم رسله وأنبياءه يبلّغونهم رسالته الحق ودينهم الحق ، فما من أمة إلا جاءها نذير :

﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [النحل :٣٦]

وكذلك :

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾

[فاطر :٢٤]

وامتدّت الرسل في تاريخ البشرية امتداداً واسعاً حتى لم يعد من أمّة إلا جاءها رسول كريم ينذر ويبشر ، وحتى لا يعود لأحد من خلقه عذر في كفر أو شرك أو ضلالة :

﴿ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء :١٦٥]

إنه الحق الذي يملأ السموات والأرض ، ويملأ الكون كله ، وعليه يقوم الكون ، وتقوم السموات والأرض ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إنها أهم صفة من صفات المؤمنين المتقين المحسنين الذين لا يشركون بالله

شيئاً . وإنها القضية الأخطر في حياة كل إنسان ، ليجاهد بها نفسه حتى تستقيم على هذا الحق المشرق ، ليدخل بها الجنة برضاء الله وحكمه وقدره ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولذلك منّ الله على عباده برحمته لهم أن يسّر لهم سبيل الإيمان والتوحيد بالقضايا الثلاث التي ذكرناها .

أن جعله الله في الفطرة السليمة ، وبث آياته الدالة عليه في السموات والأرض، وفي أنفسنا ، وأرسل رسله على مدى التاريخ ، في كل أمة حتى خُتِموا بمحمد ﷺ .

أيها المسلم جاهد نفسك حتى تكون من المتقين المحسنين ، لا يدخل قلبك ذرة من شرك .

فالحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً ملء السموات والأرض وما بينهما. وملء ما شئت يا ربي من شيء بعد .



(١٠)

مع الآيـة الكريمة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ... ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون :٥٧-٦١]

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول ﷺ يقول : « **اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع** »

[أخرجه الترمذي وقال حديث حسنٌ صحيح][1]

لقد كانت حياة الرسول ﷺ المثل الأوفى للخشوع ، ولغيره من قواعد الإيمان. وكان الرسول ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين أبد الدهر . وكان الخشوع سمة بارزة في حياته . كيف لا ؟! وعائشة رضي الله عنها تقول : « كان خلقه القرآن » ! كيف لا؟! والقرآن تتلى آياته وفيها :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٣]

كيف لا ؟ وكان يقوم الليل حتى تنتفخ قدماه :

فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : « صلّى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه» . فقيل له أتتكلّف هذا وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟! قال:

---

(١) الترمذي : كتاب الدعوات (٤٩) . باب (٦٩) . حديث (٩٣٤٧٨) .

« أفلا أكون عبداً شكوراً »

[أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجة][1]

فهو خشوع ممتد في ميادين الحياة كلها :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢]

ولقد علّم الرسول ﷺ تلامذته أصحابه الخشوع وأحواله وآدابه . وعلمهم إياها نظرياً وممارسة وتطبيقاً ، حتى كان صحابة رسول الله ﷺ نماذج امتدت في الأرض تحمل رسالة الله وتعلِّم الناس . وحمل الرسالة من بعدهم التابعون ، وامتدت هذه المهمة العظيمة يحملها أئمة الإسلام مع الدهر كله ، ويظل النبي العظيم محمد ﷺ هو القدوة الحسنة لهم ولنا وللناس جميعاً .

إنك لتجد الخشوع في حياة هؤلاء الصحابة الأبرار ، والتابعين الأخيار ، والأئمة الأعلام في صلاتهم ونسكهم ، وفي ميادين التجارة والسعي ، وفي البيت والشارع ، وفي ميادين الجهاد ، وفي الحكم والسياسة ، وفي كل ميدان .

فعندما توفي النبي ﷺ اضطرب صفّ المسلمين حتى قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنكر موته . لما جاء أبو بكر رضي الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجًّى في بيت عائشة رضي الله عنها ، فكشف عن وجهه وقبّله وقال : « بأبي أنت وأمّي . أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ، ثمَّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً » ! ثمَّ ردَّ الثوب على وجهه وخرج وعمر يكلّم الناس . فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر ! أنصتْ ! ثمَّ تكلَّم فأقبل عليه الناس ثمَّ قال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإنَّ محمّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيّ لا يموت » ، ثمَّ تلا الآية :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

---

(١) البخاري : كتاب التهجد (١٩) ، باب (٦) ، حديث (١١٣٠) . مسلم : كتاب (٥٠) ، باب (١٨) حديث (٢٨١٩) . الترمذي : كتاب أبواب الصلاة (٢) ، باب (١٩٢) ، حديث (٤١٢) .

عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

هنا ، في موقف عظيم رهيب ، موقف ينتقل فيه النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فيضطرب الناس ومن بينهم عمر رضي الله عنه . هنا في رهبة الموت وعظمة النبوّة الخاتمة ، ارتبط قلب أبي بكر بربّه وخالقه ، ووعي حقيقة الإيمان والتوحيد ، واجتمع في قلبه ما تعلّمه من مدرسة النبوّة ، فخشع لربّه وقال كلمة الحق ، وقلبه متصل بالله إيماناً ويقيناً وتوحيداً ، وقلبه يعمره العلم الحق ، فكان الخشوع طمأنينة وتسليماً ! هذا هو الخشوع بين يدي الله سبحانه وتعالى في المواقف الجلية التي تهزّ !

ولا ننسى سمة الخشوع في حياة أبي بكر ، في صلاته ونسكه وتلاوته القرآن الكريم . ولمّا ازداد مرض رسول الله ﷺ قال : « **مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس** » . فقالت عائشة رضي الله عنها : « **إنَّ أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ...** » !

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل الخشوع والإنابة في صلاته وقيامه ، وفي صحبته للنبوّة الخاتمة ، وفي الفتوح التي دفع جيوش المسلمين لها ، وفي عام الرمادة ، وفي القضاء ، وفي وصاياه للجيوش وقادتها وللولاة . ونأخذ مثلاً من وصاياه للخليفة من بعده :

« ..... **وأوصيك بتقوى الله وشدّة الحذر منه ومخافة مقته ، أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرّغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيّهم على فقيرهم ..** »

وهذا عمر رضي الله عنه ، عندما طُعن في صلاة الفجر ، وبعد أن طُعن ، وهو في أيامه الأخيرة ، ظلَّ ذاكراً لله ، خائفاً منه ، راجياً رحمته ، خاشعاً في كلِّ

حالاته ، ينظر في أمور المسلمين ، يُنظم الشورى ليُختار خليفة من بعده .

فلمَّا احتمل وسأل عمّن قتله ، وعلم أنه غلام المغيرة بن شعبة ، قال : «الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قط» . وبعث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ليستطلع خبر الناس أله ذنب إلى الناس لم يعلمه . ولما علم أنه ميت ولا شفاء لجرحه ، جمع أهله وقال : ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ : « **يعذّب الميّت ببكاء أهله عليه** » .

ولَمَّا حاول عبد الله بن عباس أن يطمئنه بصحبة رسول الله ﷺ وصحبة أبي بكر ، وبما عمل من خير ، وكان مما قاله عند ذاك : (...... والله لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه) .

ومما قاله : «... وما أصبحت أخاف على نفسي إلا إمارتكم هذه» . وقال : « والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها (أي الإمارة) لا أجر ولا وزر » .

أيام عمر رضي الله عنه كانت فيها نعلم كلها خشوعاً . وأيام وفاته كانت كل لحظة فيها دروساً عالية في الخشوع والإنابة ، والخشية والإخبات ، في تفكير دائم، ونظر دائم ، في أمره وهو يغادر الدنيا ، وفي أمر المسلمين وهو يفارقهم إلى لقاء ربه.

وعثمان بن عفان رضي الله عنه كان مثلاً في الخشوع وخاصة في بذله وإنفاقه. فحين حثَّ رسول الله ﷺ الناس على جيش العسرة في غزوة تبوك ، قال عثمان رضي الله عنه: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها » . ثمَّ حثَّ رسول الله ﷺ . فقال عثمان:«عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فقال رسول الله ﷺ: « **ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد هذا** ».

وعن هانئ مولى عثمان قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته . فقيل له : تذكر الجنَّة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا . فقال إنَّ النبي ﷺ قال : (**إنَّ القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده**

أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه . ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه) [رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم]

وحياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه تقدّم للبشرية نماذج رائعة من الخشوع في أمره كله : في صلاته وشعائره ونسكه ، في بيته ، في جهاده ، في خلوته ، في لبسه وطعامه. وحسبه أن قال له النبي ﷺ : **(أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)** .

وأعظم ما يظهر الخشوع فيه صدق أداء الشعائر وعلى رأسها الصلاة ، والجهاد في سبيل الله عن إيمان وعلم وتقوى ، وبذل صادق ، ونهج واضح جليّ ، ودعوة لله خالصة ، وتعهُّد وبناء وإعداد ، وجمع لكلمة المؤمنين الخاشعين ، وإماته الفتنة والتفرّق والشتات . ثم يمضي الخُشوع من الصلاة والشعائر إلى جميع ميادين الحياة حتى يبلغ ذروته حين يقدّم المؤمن ماله وروحه في سبيل الله ، حتى كأن الخشوع نهج حياة ممتدة .

فعمر بن عبد العزيز بعد أن ولي أمر المسلمين وأصبح خليفتهم ، ضرب أروع الأمثلة في الخشوع وأغناها . ولما جاء الفقهاء إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان يعزونها بوفاة خليفتهم ، سألوها عن حياته في بيته فقالت : « والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكنّي والله ما رأيت عبداً لله قط كان أشد خوفاً لله من عمر » .

وعن سعيد بن جُبير قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى ، يعني عمر بن عبد العزيز ، فحزرنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات .

وذكر الإمام الجوزي أن عمر بن عبد العزيز كان كثير البكاء . فلما سئل عن ذلك قال : «إني أذكر منصرف الخلائق بين يدي الله ، فريق في الجنة وفريق في

السعير» ثم غشي عليه .

وَأَخْشَعَ ...! وَالدُّنْيا خُشوعٌ وَأَوْبَةٌ ... وتَسْبيحُ أَكْوَانٍ ورَجْعُ شُدَاة

وَإنَّكَ تَعْفُو عن كَثيرٍ فَنجِّني ... بعَفْوك...!دُونَ العفْو..أَيْنَ نَجَاتي..!

وَهَبْ لي يا رَبّي بِفَضْلكَ رَحْمَةً ... لتَغْسلَ مِنْ إثمي...ومِنْ سَقَطاتي

وَهَبْ لِيَ أَمْناً يَمْلأُ القَلْبَ بِشْرُه ... سَكِيْنَةَ إِيمانٍ ...وَعَزْمَ ثَبَاتِ (١)

*** ***

وفي التابعين نماذج رائعة شتى من الخشوع الممتد في ميادين الحياة .

دخل ابن عروة على اصطبل الوليد ليتفرج على جياده الصافنات . فرمحته دابّة رمحة قاضية أودت بحياته . ولم يكد عروة ينفض يديه من دفن ولده ، حتى أصابت إحدى قدميه الآكلة (داء يصيب العضو فيأكل منه) فتورّمت ساقه واشتدّ الورم بسرعة مذهلة . وأجمع الأطباء على ضرورة بتر ساقه قبل أن يمتد الورم إلى جسده كله فيقضي عليه . ورفض أن يأخذ مسكراً أو مخدراً ، أو أن يمسك به الرجال ليثبتوه إن اشتدّ به الألم عند بتر ساقه . رفض ذلك كله وقال : لا حاجة لي بذلك، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح . فقطع الطبيب اللحم ، ثم طفق ينشر العظم بالمنشار ، وعروة يقول : لا إله إلا الله ، الله أكبر ، وما فتئ الجراح ينشر وعروة يهلل ويكبر .. ! ثم أُغلي الزيت في مغارف الحديد ، وغُمُستْ به ساق عروة لإيقاف تدفّق الدماء ، ولحسْم الجراح ، فأُغْمِيَ عليه إغماءة طويلة حالت دونه ودون قراءة حصته من كتاب الله ذلك اليوم وكانت المرة الوحيدة التي فاته فيها ذلك الخير منذ صدر شبابه .

وعبد الله بن عون (ت ١٥١هـ) ، كان مثلاً يحتذي في التابعين . قال عنه روح بن عبادة : « ما رأيت أعبد من ابن عون » . وقال ابن المبارك : ما رأيت مصلياً مثل

(١) من ديوان : جراح على الدرب . قصيدة : دُعَاء في جَوف اللَّيل ودَمْعَةٌ . للدكتور عدنان علي رضا النحوي .

ابن عون . كان ورعاً مترفعاً عن الدنيا ، حابساً للسانه ، حليماً ، زاهداً خاشعاً مخبتاً لله مجاهداً في سبيل الله »[1] .

الخشوع لا يتوقف عند حدٍ ، إنه ليس سمة فرد فحسب ، ولا سمة أمة فحسب . إنه سمة الكون كله ، سمة السموات والأرض ومن فيهن ، والخشوع في ميزان الإسلام لا ينحصر في هذه الحياة الدنيا ، ولا ينحصر في حياة الإنسان المؤمن. إنه يمتد لجميع أرجاء الكون ، ويمتد كذلك إلى الآخرة :

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر :٢١]

يقف المؤمن مع هذه الآية الكريمة يتدبر كيف أن الجبل يخشع من خشية الله . هذه هي الخشية الصادقة التي تبعث الخشية في الجماد ، في الجبال . وتكون هذه الخشية وهذا الخشوع صادقين حتى أن الجبل يتصدّع ! كيف لا ؟! وكل شي في الكون من إنسان أو حيوان أو طائر أو جماد يسبح بحمد الله :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت :٣٩]

عجباً ؟! أتخشع الأرض والسموات و الجماد والحيوان ولا يخشع الإنسان؟! إن الذين لا يخشعون لله من بني آدم كتب الله عليهم هذا الهوان والذلّ ، لأنهم يستحقونه بميزان الله الحق العادل الذي لا يظلم .

ومن رحمة الله على عباده أن بعث محمداً ﷺ نبياً ورسولاً ليبلغ الرسالة من ناحية وليبيّنها لهم من ناحية أخرى ، وليقدّم الأسوة الحسنة في التطبيق والممارسة لمنهاج الله من ناحية ثالثة . ثلاث مهمات مترابطة للنبوة . وتكون ممارسة النبوة لمنهاج الله هي المثل الأكمل للممارسة الإيمانية تتعلم البشرية كلها منها .

---

(١) ومضات من حيات، العلماء العباد ـ ربيع بن محمد السعودية . ط١(١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .

واجبنا إذن ، من واجب الدعوة الإسلامية ، من أول واجباتها ، أن تعلم المسلم مسؤولياته وواجباته والتكاليف المنوطة به ، وأن تدربه على النهوض لها وممارستها وفق منهج واضح جلي ، حتى لا يبقى المسلم إمعة مشلول القوى ، معطل التفكير !

كيف يأتي الخشوع الحق للمسلم إذا كان مشلول القوى ، معطل التفكير حانياً رأسه في الصلاة وخارج الصلاة ، مغمض العينين في الصلاة وخارج الصلاة، عازفاً أو غارقاً في لهوة أو غفوته .

والخشوع ليس عملاً ليناً يسيراً . إنه معاناة في النفس، وصبر على طاعة الله، وصبر على الابتلاء ، وبذل وجهاد ، ومجاهدة للنفس ومقاومة الأهواء ، وعمل دائب مستمر لا ينقطع . إنه ليس خلوداً لراحة ، والكسل ، ولا استسلاماً للهوان ولا هروباً من التكاليف الشرعية ، ولا اللجوء إلى التكاليف غير ذات الشوكة ، ولا الانغماس في الوهم والخيال ، ولا بنقض العهود وخيانتها .

خَشَعْتُ إلى الرحمن جَفْناً مُبلَّلاً وكَفّاً نَدِيّاً ضَارِعَ الرَّعشاتِ
وقَلْباً .. بِهِ مِنْ خَشْيَةِ الله رَجفَةٌ ومِنْ ذِكْرِه أمْنٌ وظَنٌّ نَجاتي
وَعَوْنٍ مِنَ الرّحمن، لولاهُ ما اهْتَدى فُؤادٌ وَلا نَالَ الفَتَى حَسَنَاتِ
إذا نِلْتُ مِنْ خَيْرٍ فَذَلِكَ فَضْلُهُ وَإنْ مَسَّني سُوءٌ فَمِنْ عَثَراتي
أتُوبُ إلى الرَّحمن ..! يا فَوْزَ تَائِبٍ إذا وَسِعَتْهُ رَحْمَةٌ بِنَجَاةِ (١)

*** ***

وخلاصة ذلك أن الخشوع هو إقبال المؤمن على ربّه إقبال الخضوع والذلة والإقرار أمام جلال الإلوهية والربوبية ، وأمام الإقرار بعبودية المخلوق لربه وخالقه الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها ، وأمام إدراك حقيقة الحياة

(١) من ديوان جراح على الدرب ـ قصيدة : نَجْوَى في خُشوعٍ وتَوْبة ـ للدكتور عدنان علي رضا النحوي .

الدنيا، وأنَّها دار متاع وعرض زائل، وأمام حقيقة الموت والقبر والساعة والبعث والحساب والجنة والنار، وأمام المسؤولية الكبرى التي يحملها، والأمانة العظيمة التي سيحاسب عليها.

إن الخشوع نور ووعي ويقظة. بل هو أعلى درجات الوعي واليقظة وإدراك الحق.

عن الخشوع في السيرة النبوية العطرة..

حديث ابن العباس عن النبي ﷺ قال: «**عينان لا تمسهما النار عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».

وعن النبي ﷺ قال: «**لا يلج. أي لا يدخل. النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار سبيل الله ودخان جهنم**».

قال الله سبحانه وتعالى: **وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة.**

يارَبِّ! فاهدِ قلوبَ المسلمين إلى ... هُداكَ صفّاً إلى الميدان يبتدرُ

يجلو لنا النَّصرفي سَاحاته أملاً ... تحققَتْ فيه من أشواقنا العِبَرُ

آياً منَ الله! إذ يمضي الزمان بها ... يروي فيصغي إلى آياتها البشرُ

في أُمَّةٍ لم تزل تبني بطولتها ... مجداً يعزُّ وفرساناً لها نَفَرُوا

رسالة الله للدنيا نُبَلِّغُها ... أمانة حَمَلتْها الأنفسَ الصَبُر

كأنَّهم في الدجى الأقمارُ قد طلعتْ ... تزيح من ظلمة فيه وتنتشرُ [1]

*** ***

(١) من كتاب: فلسطين وصلاح الدين -قصيدة: أيقِظْ إذنْ أنفساً- للدكتور عدنان علي رضا النحوي.

ومن أهم معاني الخشوع المضيّ على الصراط المستقيم يوفي العبد بعهده مع الله ، وبالتكاليف المنوطة به ، نظره معلق بالآخرة لا بالدنيا ، لا يهبط بالمعاني التي يزينها له الشيطان أبداً .

قبسات
من الأحاديث النبوية المطهرة

١. مع الحديث الشريف : (... بُني الإسلام على خمس ...) .
٢. مع الحديث الشريف : (.. فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين ...) .
٣. مع الحديث الشريف : (من قُتل دون ماله فهو شهيد ...) .
٤. مع الحديث الشريف : (ألا أُنَبِّئُكم بخير أعمالكم وأزكاها ...).
٥. مع الحديث الشريف : (لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد ...) .
٦. مع الحديث الشريف : (ثلاث من عمل الجاهلية لا يتركهن ...).
٧. مع الحديث الشريف : (إنما الأعمال بالنيات ...) .

(١)
مع الحديث الشريف
(.. بُني الإسلام على خمس ...)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : (**بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، و إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان**)

[رواه أحمد والشيخان والترمذي والنَّسائي] [١]

إن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا التكاليف الربّانية على الفرد المسلم وعلى الأمة بصورة جليّة في منهاجه الربّاني . كيف لا يبيُّنها وهو الغفور الرحيم ، العزيز الحكيم، القائل في كتابه المبين :

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١]

وبلَّغَنَا رسول الله ﷺ رسالة ربّه وأدّى الأمانة أدقَّ أداءٍ وأوفاه ، بلسان عربيّ مبين .

كان من بين التكاليف الربانيّة الشهادتان والشعائر من صلاة وزكاة وحجّ وصوم. وجعلها الله أساس التكاليف كلها ، لا تصحّ ولا تقبل دونها ، كما بيّن لنا الحديث الشريف. ولكن هذه لم تكن النقطة الوحيدة التي نفهمها من فقه هذا الحديث الشريف العظيم .

لقد اعتاد كثير من المسلمين اليوم في شتى أنحاء الأرض ، أن يكتفوا بالشعائر ويقفوا عندها ، ثم ينصرفوا بعد ذلك إلى لهو الدنيا ولعبها ، وإلى زخرفها ومتاعها ، وإلى أهوائهم ومصالحهم ، معتقدين أن هذه الشعائر هي غاية التكاليف المفروضة عليهم .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط:٣) . (رقم : ٢٨٤٠) .

ربما تولَّد هذا التصورّ من بعض فترات التاريخ الإسلامي ، حين كانت الأُمة المسلمة أُمةً واحدةً ، عزيزة الجانب مرهوبة من الأمم ، مستقرَّة الأوضاع . وربما كان ينفر للدعوة إلى الله عدد ، وينفر إلى الجهاد عدد وتبقى الأعداد الكبيرة منصرفة إلى مصالحها ، دون أن يعرّض هذا الانصراف الأمة إلى خطر . وربما تولّد هذا التصوّر من عصور الضعف و الوهن .

ولكن هذه الصورة تختلف عما كان عليه الحال أيام النبوّة الخاتمة ، حين كان الرسول ﷺ يبني دعوة الله في الأرض ، ويبني أمة الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا . في هذه المرحلة كان كل مسلم مكلفاً بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس حين فُرض الجهاد . وما كان يُعذَر إلا من كان له عذر شرعيٌّ يقبله الله سبحانه وتعالى. وكان كل مسلم قادراً على القتال ، مستعداً ، مدرّباً عليه ، وكان كل مسلم مكلفاً بتعلُّم القرآن الكريم ومتابعة أحاديث الرسول ﷺ ، ليُبلّغ الشاهدُ الغائب . وكان العدد الكبير ينطلق ليبلّغ رسالة الله ويدعو الناس إليها ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد والأوثان والأهواء والمصالح إلى عبادة الله وحده ، حتى كان الجهاد في سبيل الله باباً من أبواب الدعوة والبلاغ .

كانت الأمة المسلمة كلها صفّاً واحداً يقودها رسول الله ﷺ ، على درب واحد قويم ، وصراط مستقيم ، محدَّد الاتجاه والمعالم والأهداف ، ماضياً إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنّة ورضوان الله والدار الآخرة - . كان الجميع يعملون إلا المتخلفين والمنافقين . وكان الجميع ينفقون إلا المتخلفين والمنافقين .

وامتدَّ التاريخ الإسلامي ، وتبدَّل الواقع ، ولكن دين الله لم يتبدّل . وظل المنهاج الرباني بنوره الممتد يُشرق في قلوب ، وتنصرف عنه قلوب . وأخذ الجهل يظهر ويمتدّ وينتشر بين الناس مع امتداد التاريخ ، إلا أولئك الذين نذروا أنفسهم للعلم والدعوة والتعليم ، ومن تَيَسَّرتْ له ظروف العلم حسب إمكانات كل واقع.

ومع مظاهر الاستقرار في الأمة مال الكثيرون إلى دنياهم ، حتى أصبح هذا الميل يولّد مفهوماً خاطئاً لدى قطاع واسع من المسلمين ، مفهوماً لا يقرّه الإسلام ولا يقرّه أئمة الإسلام وعلماؤه المجاهدون ، وكأنه أصبح قضيّة نفسية تهب القناعة والرضى بالعزوف عن بعض التكاليف الربّانية التي وهبهم الله الوسع والقدرة على القيام بها ، كتعلّم القرآن والسنة وتدبرهما ، والدعوة إلى الله ورسوله ، ومتابعة التكاليف الأُخرى ، كلٌّ قدر وسعه الصادق الذي سيحاسِبُه الله عليه ، نفسيّة ترضى بالاكتفاء بالشعائر ثم الركون إلى الدنيا .

ويذهب هؤلاء إلى البحث عن آيات وأحاديث تسوغ لهم هذا الانقطاع عن التكاليف التي يستطيعون القيام بها ، لا يصدُّهم عنها إلا الدنيا وتجارتها . وربما ظنّ بعضهم أنه يجد ضالته في الحديث الشريف الذي أوردناه أول هذه الكلمة ، فهيئ لهم معنى كلمة (**بُني الإسلام على خمس**) أن هذه الأركان الخمسة هي كل الإسلام ولا تكاليف ربّانيّة بعدها .

إنّ الحديث الشريف يُشبِّه تكاليف الإسلام كلها بالبناء الذي يقوم على أسسه ، فلا يصلح البناء دون الأسس ، ولا توفّر الأسس وحدها ما يوفره البناء من مأوى وسكن وغير ذلك . وشبّه رسول الله ﷺ الشهادتين والشعائر بالأسس التي يقوم عليها البناء كلّه ، الأُسس التي يقوم عليها الإسلام كله ، والتي تقوم عليها بقيّة التكاليف الربانيّة ، والتي لا تصح التكاليف إلا بها . ولكنها وحدها لا تمثل كامل البناء الذي يقيمه الإسلام ، ولا كمال البناء الذي يقيمه الإسلام ، ولا كامل التكاليف والواجبات والمسؤوليات .

إن هذه التكاليف تمتد على سبيل واحدة ، لا سبل متفرقة . إنها (في سبيل الله) :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨]

وحين يتخلى المسلم عن التكاليف الرّبانيّة من تدبّر لكتاب الله ودعوة إلى الله ورسوله وغير ذلك مما فصّله منهاج الله ، ومما هو في حدود وسعه وطاقته. فإنه بذلك يفتح الفرصة لأعداء الله لينزلوا إلى الميدان بدعواتهم الضالة وجنودهم الكثيرين الذين يعملون ليل نهار لنشر فتنتهم وفسادهم . وكلما تخلّى مسلم قادر عن مسؤولياته فتح المجال لمفسد أن ينزل الميدان ليضلّ ويفسد . فكيف يكون الحال عندما يتخلى ملايين المسلمين عن الميدان ، ومن سيقف عندئذٍ في وجه جنود الشيطان! وكيف لا ينتشر الفساد في الأرض ، وتمتدُّ الفتنة بعد الفتنة ، والفواجع بعد الفواجع .

إن هذا الحديث الشريف يقدّم لنا فقهاً عظيماً . إنه يضع الأُسس التي لا يصلح العمل دونها ، ويشير إلى سائر التكاليف التي يجب على المسلمين أن ينهضوا لها ، كلٌّ قَدْرَ وُسْعه وطاقته ، وحدوده ومسئوليته ، والأمانة التي جعلها الله في عنقه.

إن الواقع ، حين يُرَدّ إلى منهاج الله ويُدْرَس من خلاله ، يكشف لنا خطورة هذه المسؤوليات وأهميتها من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه . ويُبرز لنا الواقع عندئذ أهميّة الرجوع إلى منهاج الله وردّ الأمور إليه ، حتى تتبيّن لنا التكاليف من منهاج الله ، ويتبيّن لنا أنها تكاليف ربانيّة .

ونرى من هذا الحديث الشريف كيف يقوم الفقه أولاً على القاعدة الصلبة قاعدة الإيمان والتوحيد ، ثمَّ على الركنين الرئيسين : المنهاج الرباني والواقع الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرباني .

واليوم ، في واقع المسلمين ، أصبح من الضروريّ أن يعرف كلُّ مسلم مسؤوليّاته وواجباته كما شرعها الله سبحانه وتعالى ، وكما فصَّلها في المنهاج الربَّاني ، لينهض كلُّ مسلم إليها ليوفي بأمانته وعهده مع الله ، ولينصُر دين الله !

ومن هنا ندرك أهمية ربط الفقه بمنهاج الله ، ليكون منهاج الله هو مصدر

سائر العوامل التي تساعد على قيام الفقه في الإسلام والتي تُدرّس كلُّها مع ترابطها وتماسكها من خلال منهاج الله .

إن مسؤوليات المسلم والتكاليف الرّبانية الملقاة على عاتقه متناسقة مترابطة كما يعرضها منهاج الله . تنطلق كلها من الإيمان والتوحيد . فقضيّة الإيمان والتوحيد قضية مفاصلة وحسم ، وقضية تكاليف والتزام ، وقضية مسؤولية وحساب . ومنهاج الله يعرض ذلك كله ويُفَصِّله .

ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٥]

هذا هو المنطلق إلى ميدان الممارسة والتطبيق : (**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ** ...) إنه الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله .

ثم يأتي أساس كل ممارسة في حياة المسلم . إنه الشعائر التي لا يصحّ عمل إلا أن يكون قائماً عليها . ويكتفي القرآن الكريم بذكر الصلاة في هذه الآية الكريمة وفي غيرها ، وتأتي الزكاة مقترنة معها في بعض الآيات ، ليس إغفالاً لسائر الشعائر ولكن لأن الصلاة أولها ورأسها .

ثم تأتي الإشارة إلى ميدان الممارسة الإيمانية مرتبطة بالإيمان والتوحيد ، وبمنهاج الله ، وبالشعائر : (... **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**) .

فهذا المنطلق وهذه الأسس هي التي تضبط الممارسة الإيمانيّة وتوجِّهها ، حتى يظلّ كلُّ عمل يقوم به المسلم مرتبطاً بذكر الله ، مرتبطاً بمنطلقه وأسسه ، وذكر الله هو الذي يجمع الميادين كلها ، وبه يجب أن ترتبط الأعمال كلها ، حتى

أصبح (ذكر الله أكبر) .

وتتوالى الآيات في كتاب الله لتبيّن لنا امتداد المسؤوليات والتكاليف وترابطها وتناسقها ، لتظل مرتبطة بمنطلقها قائمة على أسسها .

لا بد للمسلم أن يعي هذه الصورة حتى يعلم السبيل إلى نجاته في الدنيا ، إلى نجاته من فتنة الدنيا ونجاته من عذاب الآخرة .

ويمكن أن نعيد إيجاز التكاليف التي أمر الله بها عباده ليأتوا منها كلٌّ على قدر وسعه وطاقته ، ولتكوِّن حقيقة الأَمانة التي حملها الإنسان ، والعبادة التي خلِق لها ، والخلافة التي جُعلت له ، والعمارة التي أُمر بها : (١)

١- أن يفكّر ويتخذ قراره أيؤمن أم يكفر ، وليتحمّل مسؤولية قراره هذا في الدنيا والآخرة .

٢- فإن آمن أدّى الشهادتين وأقام الشعائر .

٣- طلب العلم الذي أساسه منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربية - .

٤- ممارسة منهاج الله في الواقع ، ومعرفته لحدوده ، ومبادرته الذاتية بحوافز إيمانية ، والاجتهاد في حدود وسعه وعمله ومسؤولياته .

٥- من أهم أبواب ممارسة منهاج الله في الواقع والتكاليف العامّة الدعوة إلى الله ورسوله إلى الإيمان والتوحيد ، لإخراج الناس من عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله وحده . فمن أجل هذا قامت الدعوة الإسلامية .

٦- المساهمة الجادة في تحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة في واقع الإنسان على الأرض .

لابد أن يعي المسلم هذه المسؤوليات الهامّة التي سيحاسب عليها يوم القيامة، فلا يقعد عنها ، بل ينهض إليها بكلّ ما أوتي من قوة وعزيمة ووسع .

(١) يراجع كتاب: بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية - الباب الخامس للمؤلف .

ولْيُفكِّر المسلم الذي أباح لنفسه أن يترك هذه المسؤوليات ، كيف يكون الحال لو أنّ كلَّ مسلم أباح لنفسه التخلي عن الميدان ، ليجوسه أعداء الله فلا يجدون من يصدّهم عن نشر الكفر والفتنة والفساد ؟

ولْيُفَكِّر المسلم كيف يكون الحال لو تم ذلك ، فلكل مسلم الحقُّ الذي له ، فإن أباح لنفسه التخلّي ، فغيره يمكن أن يبيح لنفسه كذلك .

وإنا لنلمس في واقع المسلمين شيئاً كثيراً من ذلك . الملايين من المسلمين شُلُّوا وتعطلت قدرتهم ، وأخلوا الساحة لأعداء الله تحت أعذار باطلة شتى .

وإذا طال الأمر فسيكونون هم ضحايا العدوان والفتنة والفساد والظلم .

إنها مسؤولية كل مسلم أن ينهض لينهض بناء الإسلام شامخاً عالياً ثابتاً على أسسه المتينة الراسخة ، بنياناً مرصوصاً كما أمر الله سبحانه وتعالى .

(٢)
مع الحديث الشريف
(.... فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين ...)

يذهب بعض المسلمين إلى القول بأنه يجب أن نفهم كتاب الله كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم ، ويدعون إلى ذلك دعوة تحمل هذا المعنى شعاراً لا يرافقه نهج ولا خطة . وبعد إطلاق هذا الشعار سنين طويلة فإننا نتساءل هل فهم أصحاب هذا الشعار كتاب الله كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم ؟!

ونجيب على هذا السؤال من خلال تجربتنا في الميدان بأن الفهم كان يختلف من شخص إلى آخر في بعض الآيات مع بقاء الشعار واحداً ! وكان السؤال الأول الذي يفرض نفسه : أين نجد فهم الصحابة رضي الله عنهم لندرسه ونتعلّمه ونعلّمه للناس ؟! أفي كتب التفسير ؟! فإننا نجد فيها أقوالاً متضاربة ولا نجد نهجاً واحداً ولا فهماً واحداً ، إلا في الآيات المحكمة التي هي أم الكتاب .

ونجد في كتب التفسير أقوالاً متضاربة تُروى عن عبد الله بن عباس ، ونجد كذلك أقوالاً متضاربة وغير موثقة عن بعض التابعين والمفسّرين . فعن ابن كثير في تفسير سورة النمل ، الآيتان : ١٨، ١٩ : « أورد ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن أن اسم هذه النملة « جرس »، وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب » . فهل هذا الفهم كان من فهم الصحابة رضي الله عنهم ، والمسلم وهو يدرس كتاب الله ويقرأ في كتب التفسير ، كيف يكون موقفه وأخذه لمثل هذه الأقوال وأمثال ذلك كثير في بعض كتب التفسير الأُخرى .

أقصد من ذلك أن فهم الصحابة رضي الله عنهم غير متوافر لدينا بصورة موثّقة منهجية ، وأن البحث عن هذا الفهم يحتاج إلى جهد أكبر من جهد المسلم العادي الذي أمره الله أن يتدبّر كتاب الله .

والقضية الثانية أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في فهم بعض القضايا وفي ردّها إلى منهاج الله . وقد تطور هذا الاختلاف إلى أن تحوّل إلى قتال يقتل فيه المسلم أخاه المسلم ، ضاعت في ذلك الصراع معاني أخوّة الإيمان والإسلام . وعمّ عدداً واسعاً من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، فأيّ فهم نأخذ به ؟! بينما كان الحق جليّاً في آيات الله وفي الأحاديث الشريفة ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

[الحجرات :٩]

وكذلك قوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

[الحجرات :١٠]

أضف إلى ذلك الأحاديث الشريفة البيّنة الجلية : « المسلم أخو المسلم ...» «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ... »

خلاصة ذلك كله أنه يتعذّر علينا أن نقدّم للمسلم اليوم فهماً واحداً محدّداً نلزمه به على أساس أن ذلك فهم الصحابة رضي الله عنهم . ولذلك نقول إن هذا شعارٌ أُطلق دون أن يرافقه نهجٌ وخطة تعين المسلم على تدبّر كتاب الله تدبُّراً سليماً.

ولذلك نطرح نحن في مدرسة لقاء المؤمنين نهجاً وخطة مفصّلة لتدبّر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، نهْجاً وخطةً ينبعان من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ـ قرآناً وسنّة ولغةً عربية ـ ومن مدرسة النُّبُوة الخاتمة مدرسة محمد ﷺ ، المدرسة التي توضحها وتجلوها السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة ، ومن وعي حاجة الواقع الذي ندرسه من خلال منهاج الله بردّه إليه .

أولاً إن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه المبين وبعث رسوله الأمين إلى العالمين، إلى الناس كافة ، في جميع العصور والأماكن والأحوال .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر :٤١]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ : ٢٨]

وكذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف :١٥٨]

وكذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء :١٠٧]

وفي حديث رسول الله ﷺ يرويه عن جابر رضي الله عنه قال : «**أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلِّ ، وأُحِلَّت ليَ الغنائم ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة** »

[أخرجه الشيخان والنسائي][1]

فهذه هي القاعدة الأولى التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار عند وضع خطة ونهج لتدبّر كتاب الله ، ذلك أن الله لم يُنزله ولم يبعث رسوله ﷺ لقوم محدودين أو زمن محدود ، وإنما أنزله للناس كافّة ، للعالمين ، لكل الشعوب والأمم ، ولكّل زمان

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :١٠٥٦) .

ومكان وحال . ففهم كتاب الله ممتدٌّ مع الزمن يقدم الحلول لكل مشكلات الإنسان في كل زمان ومكان .

وعلى ضوء هذه القاعدة فيجب تدَبُّر منهاج الله في كل عصر حتى توضح الحلول لمشكلات ذلك العصر ، لجميع مشكلاته الفكريّة والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال :

« **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مئة سنة من يجدّد لها دينها** » [أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي] (١)

والتجديد المعنيّ في هذا الحديث الشريف الصحيح أن يخرج المجددون للناس حلولاً للمشكلات الجديدة . ومن ضرورات هذا التجديد صدق الإيمان وصفاء التوحيد ، فالإيمان يَخْلَق كما يخلق الثوب ، فيجدّد الله للناس إيمانهم . فعَن ابن عمر عن الرسول ﷺ قال :

« **إن الإيمان لَيَخْلَقُ في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجَدّد الإيمان في قلوبكم** » [أخرجه الطبراني والحاكم] (٢)

فبصدق الإيمان وصفاء التوحيد يفتح الله للصادقين معاني الكتاب وييسّر لهم استخراج الحلول لكل ما يجدُّ من الأحداث والوقائع . وقد تجدّدت الأحداث بعد وفاة النبي ﷺ ، فما وقف الخلفاء الرّاشدون عاجزين أمام الأحداث ، وإنما وضعوا لها حلولاً ، ونجد ذلك في حياة أبي بكر وعمر وعلي وعثمان رضي الله عنهم أجمعين. ووضعوا الحلول سنّة ونهجاً يتَّبعُ سنة الرسول ﷺ ، كما جاء الحديث الشريف الذي يرويه العرباض بن سارية رضي الله عنه :

« **.... فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ،**

(١) المرجع السابق : (رقم :١٨٧٥) . أبو داود : ٣١/ ١/ ٤٢٩١ .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ١٥٩٠) .

عضُّوا عليها بالنواجذ » [أخرجه : أبو داود والترمذي][1]

والسنّة هنا تعني النهج الممتد ، النهج الذي يتَّبع الطريق على صراط مستقيم. فالإيمان أساس من أسس فهم كتاب الله كما سنبيّن بعد قليل ، ومع الإيمان صدق العلم بكتاب الله ، وصدق ملازمته وتدبره والتفكير فيه . وبيّن لنا أهمية هذا النهج الحديث الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، وقال له : « **بمَ ستحكم ؟! قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟! قال: فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد ؟! قال : أجتهد رأيي ولا آلو** » **فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله** » [أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي][2]

هذه هي السنّة ، السنّة التي سنّها رسول الله ﷺ ، وأمرنا أن نعضّ عليها بالنواجذ . إنها ليست شعاراً ولكنها نهج كما رأينا .

فأَصبح لدينا الآن أُسس هذه السنّة وأسس نهجها . وأول هذه الأسس هو صدق الإيمان والتوحيد بكامل خصائصها . والأساس الثاني : العلم بمنهاج الله قرآناً وسنّة كما جاءا باللغة العربية .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدين وهذا القرآن مُيَسَّرين للعالمين ، للناس كافّة . لذلك اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لتميّزها من جميع لغات الأرض ، ولأنها هي اللغة الوحيدة التي تستطيع أن تجمع إعجاز القرآن الكريم في جميع نواحي إعجازه بياناً وحقّاً ونهجاً ربّانياً للبشرية كلها .

فارتبطت هذه الأجزاء الثلاثة فيما بينها ارتباطاً ربّانيّاً لتكوِّن ما نُسّميه **المنهاج الربّانيُّ - قرآناً وسنّة ولغةً عربيّة - أو منهاج الله** . وارتباطها عامل ميسِّر للفهم والتدبّر.

---

(١) أبو داود : ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧ ، الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ ، ابن ماجه : المقدمة (حديث ٣٥) .
(٢) الترمذي : ١٣/ ٣/ ١٣٢٧ .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن ييسّر هذا المنهاج الربانيّ للناس كافّة ، للعالمين، يُيسِّرُ لهم تدبُّرَه وممارستَه ممارسةً إيمانيّة . فتعهد أولاً بحفظ لغته معه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر :٩]

فقد تعهّد الله بحفظه من أن يحرَّف ، أو أن يُبَدَّل ، أو أن يمسَّه أيُّ تغيير ، وذلك مع الزمن كله حتى تقوم الساعة . وكم حاول المجرمون أن يضعوا قرآناً من عند أنفسهم فباؤوا بفشل ذريع ، وردّ الله سبحانه وتعالى عملهم سوءاً عليهم وفشلاً وخسراناً. وكم حاول المجرمون إساءةَ تفسير بعض الآيات ليسَوّغوا ضلالهم وفتنتهم، فردّ الله سعيهم عليهم خزياً وخسراناً ، وبقي كتاب الله اليوم، القرآن الكريم، بين أيدي المؤمنين ، وبين أيدي الناس ، غضاً نقيّاً كما أُنزل على محمد ﷺ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[فصلت : -٤٣]

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام :٩٢]

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الأنعام :١٥٥]

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[ص :٢٩]

وفي سورة القمر يأتي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧، ٢٢،٣٢، ٤٠]

تكرار وتأكيد لهذه الآية البيّنة ، حتى تتفتح القلوب على النهج الرباني الذي يسّره الله للناس كافة لفهم كتاب الله وتدبّره وممارسته ، وتأكيداً لما سبق أن ذكرناه من أسس هذا النهج ، ليكون نهجاً ماضياً مع الزمن كله للبشرية كلها حين تبلغهم الرسالة .

ففي هذه الآية الكريمة أكدّ الله سبحانه وتعالى أنه يسّر القرآن الكريم للذكر، أي للتدبُّر والوعي والعظة والاعتبار . ولكن الملايين اليوم من المسلمين في الأرض لا يجدون القرآن الكريم ميسَّراً لهم ، وكأنهم يريدون التيسير دون أن يبذلوا أيّ جهد منهم بدافع الإيمان الصادق عبادة لله وطاعة ، ووفاءً بالأمانة التي حملوها ، والعهد الذي أخذه الله ميثاقاً عليهم ، ولكنهم نسوه ونسوا الأمانة أيضاً .

فالتيسير الذي وفَّره الله هو تيسير لعباده المؤمنين ، للذين ينهضون ويسمعون ويُطيعون . ونوضّح أن هذا التيسير الذي وفّره الله لعباده المؤمنين كان بأن جعل له مفتاحين يعملان معاً لا يُغني أحدهما عن الآخر ، هذان المفتاحان يعرضهما كتاب الله في سُوَر متعددة وآيات بيّنات ، وهما :

صدق الإيمان وصفاء التوحيد

إتقان اللغة العربيّة التي نزل بها القرآن الكريم

أما بالنسبة للتيسير الأول والمفتاح الأول وهو الإيمان والتوحيد فالآيات كثيرة تؤكد هذا المعنى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء :٨٢]

وكذلك :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾

[الإسراء : ٤٥-٤٦]

وكذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : ٥٧]

وكذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام :٢٥]

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤]

وتتوالى هذه الآيات الكريمة لتؤكد أن أساس فهم كتاب الله هو الإيمان والتوحيد الخالص لله ، لا شرك معه ، ولا عصبيات جاهليّةٌ : ذاتيّة أو عائلية ، أو قوميّة أو وطنيّة ، أو حزبيّةٌ أو أي نوع من العصبيات الجاهلية ، ليكون القلب متفتّحاً للحق ، وللحق وحده .

أما بالنسبة للمفتاح الثاني ، وهو اللغة العربيّة فقد جاءت الآيات الكريمة تؤكّد هذه الحقيقة :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل :١٠٣]

وكذلك :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء :١٩٢-١٩٥]

وكذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف :٢]

وكذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد :٣٧]

وأيضاً قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : ١١٣]

وكذلك :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر :٢٧-٢٨]

وكذلك :

﴿حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فُصّلت :٣]

وأيضاً :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

[الشورى :٧]

وأيضاً :

﴿حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[الزخرف :١-٣]

وأيضاً :

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاق :١٢]

تأكيد بعد تأكيد على أن الله اختار اللغة العربيّة لكتابه المبين ، ولدينه الحق ، ولأمة الإسلام . وقرآن بغير اللغة العربيّة ليس قرآناً ولا يُتعبّد به .

فوضح الآن أن هذين المفتاحين : الإيمان واللغة العربية هما المفتاحان لتدبّر منهاج الله وفهمه ، مفتاحان لا يُغني أحدهما عن الآخر ، وهما يمثلان الأساس والقاعدة الأولى في النهج والخطة لتدبر كتاب الله .

ويمكن أن نبيّن كذلك أنه من النهج والخطة : **مصاحبة منهاج الله . قرآناً وسنة ولغة عربيّة ، صحبة منهجيّة ، صحبة عمر وحياة** . وكذلك كان صحابة رسول الله ﷺ يصاحبون منهاج الله ، قرآناً بحفظه وتلاوته وفق منهج محدد ، وسنّة بحضور مجلس رسول الله ﷺ ، وكذلك اللغة العربية التي كانت لغة القرآن الكريم ولغة مجلس رسول الله ﷺ ، وقد يتناولون بعض الأشعار ولطائف الأدب واللغة في مدرسة النبوّة الخاتمة .

وهذا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : « **قلت يا رسول الله ! في كم أقرأ القرآن ؟! قال : اقرأه في كلّ شهر ، قال قلت أقوى على أكثر من ذلك ،قال : « اقرأه في خمس وعشرين » ، قال قلت : أقوى على أكثر من ذلك ! قال : « اقرأه في خمس عشرة » ، قال قلت : أقوى على أكثر من ذلك ! قال : « اقرأه في سبع » ، قال قلت : أقوى على أكثر من ذلك ! قال : لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث** » [رواه أحمد][1]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « **تعاهدوا**

(١) أحمد : الفتح الرباني :١٨/ ١٨/ ١٩ .

هذا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفلّتاً من الإبل في عقلها »

[أحمد والشيخان][1]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رجل : « **يا رسول الله ! أي العمل أحبُّ إلى الله ؟ قال : « الحالُّ المرتحل ! » قال : وما الحالُّ المرتحل؟! قال : « الذي يضرب من أول القرآن لآخره كلما حلَّ ارتَحل** » .

ونرى من ذلك ، ومن آيات وأحاديث أخرى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتحرَّون النهج والخطة ويتبعونها ، كانوا يتبعون السنة التي أمرهم رسول الله ﷺ أن يعضُّوا عليها النواجذ .

وهذه السنة أو النهج والخطة مفصّلة في كتاب الله وفي سيرة الرسول ﷺ ، وحياة الصحابة رضي الله عنهم .

ولقد عرضنا هذه الخطة والنهج ، وهذه السنّة المباركة في نهج مدرسة لقاء المؤمنين : بالمنهاج الفرديّ وخطته ، وبيان الإشراف ، ومنهج لقاء المؤمنين ، حيث يكون دور المنهاج الفردي الصحبة المنهجيّة صحبة عمر وحياة ، ويكون دور اللقاء للتدريب على كل ما يحتاج المسلم إلى التدريب عليه . وتأتي بعد ذلك وسائل أخرى لمحاسبة النفس والتقويم الدَّوري ، وتوفير أُسس التعاون في كلِّ ما أمر الله أن يقوم التعاون فيه .

ونورد الآن موجزاً وتذكيراً بأهم بنود هذه الخُطَّة وهذا النهج للتثبيت والإيضاح ، وتوفير سهولة الرجوع والتفكير الإيماني المنهجي المنظم .

ونأمل بذلك أن نكون قد وفّرنا الفرصة والسبيل لكل مسلم كي يحسن تدبر منهاج الله وممارسته في الواقع ممارسة إيمانيّة أمينة ، مقتفياً سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين ، حتى يستطيع المسلم أن يتّبع ما أُنْزِلَ إليه من ربه :

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :٢٩٥٦) .

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

[الأعراف :٣]

١. أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم ، وبعث محمداً ﷺ للناس كافّة ليتدبَّروه ويمارسوه ويدعوا إليه وللعصور كلها والشعوب كلها والأماكن كلها ، ولم ينزله لقوم محدودين ولا لعصر محدَّد ، كما كان الحال مع الرسل السابقين حيث كان يُبْعَثُ كلُّ رسول إلى قومه خاصة .

٢. الكتاب والسنة واللغة العربية وحدة متكاملة ، يعين تكاملها على تدبّر كتاب الله وممارسته ، ولا يمكن فصلها ، وقرآن بغير العربيّة ليس قرآناً، وسنّة رسول الله ﷺ وسيرته ضرورة لفهم القرآن الكريم وتدبّره وممارسته.

٣. اتباع سنّة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين هو اتباع النهج والخطة التي وضعها الله ورسوله لتدبُّر منهاج الله وممارسته . ومن هذه السنّة والنهج : تعهّد القرآن الكريم تعهُّد الحالِّ المرتحل ، **تعهُّداً منهجيّاً صحبة عمر وحياة لا تتوقف .**

٤. البلاغ والدعوة ، وتبليغ رسالة الله للناس كافّة كما أُنزلت على رسول الله ﷺ تبليغاً منهجيّاً ، وتعهُّدهم عليها تعهّداً منهجيّاً ، والجهاد في ذلك حتى تكون كلمة الله هي العليا ، عامل يُغني التدبّر والفهم والممارسة .

٥. دراسة واقع المسلمين من خلال منهاج الله وردّه إليه والتدرّب على ذلك عنصر ضروري لحسن تدبر منهاج الله وصدق ممارسته في الواقع .

٦. صدق الإيمان والتوحيد يُنقّي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وينمّي الموهبة التي يضعها الله في من يشاء من خلقه ، ويرعى الوسع الصادق للمؤمن ، ليضع المؤمن وسعه الصادق وموهبته في طاعة الله في أمره كله ،

وفي تدبُّر منهاج الله وممارسته ممارسة إيمانية صادقة أمينة ، وهذا كله يُبعد المؤمن عن ادِّعاء الوسع الكاذب الذي يزينه الشيطان .

٧. مع صدق الإيمان والتوحيد ، ومتابعة تدبُّر منهاج الله صحبةً منهجيّةً ، صحبة عمر وحياة لا تتوقف ، ومع وعي الواقع من خلال منهاج الله، ومع الدعوة والبلاغ ، يدرك المؤمن حدوده وقدراته فيقف عندها ، ويستعين بمواهب الأمة ليتابع تدبُّر منهاج الله وممارسته ، دون أن يتجاوز حدوده ووسعه الصادق .

٨. ومن رحمة الله بعباده أن جعل لتدبر منهاج الله مفتاحين يعملان معاً **لا** يُغني أحدهما عن الآخر ، هما : **صدق الإيمان وصفاء التوحيد** ، **وإتقان اللغة العربيّة .**

٩. ومن رحمة الله بعباده المؤمنين أن يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد للأمة دينها وإيمانها وعزيمتها لاتبّاع النهج .

ولقد فصلنا هذا النهج في كتابنا :

« **حتى نتدبَّر منهاج الله** »

أما منزلة الصحابة رضي الله عنهم فقد بيّنها لنا كتاب الله بما أثنى عليهم الثناء الكبير ، وبما جاءت به الأحاديث الصحيحة . ولكننا لا يمكن أن نرفع قول البشر إلى مستوى كلام الله سبحانه وتعالى . فهم بَشَرٌ يصيبون ويخطئون كما بين لنا حديث رسول الله ﷺ :

« **كلُّ بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون** »

وكلّ فهم لكتاب الله ورد لنا عن صحابة رسول الله ﷺ مع البيّنة والحجة من الكتاب والسنة ، فإننا نأخذ به .

ولكن كتاب الله أُنزل للعصور كلها ، ففهمه وتدبُّره ممتدٌّ متجدِّد مع الزمن

دون وجود أيِّ تعارض أو انحراف بين فهم في عصر وفهم في عصر آخر ، ولكنه نهج ممتد وصراط مستقيم يسع الأزمنة كلها بأحوالها وظروفها ، ويقدّم الحلول لكل مشكلات الإنسان في كل عصر وكل مكان .

وبصورة عامة ، فمن أراد أن يفهم القرآن الكريم كما فهمه صحابة رسول الله ﷺ ، فعليه أن **يؤمن إيمانهم ، ويحمل من العلم ما حملوه ، ويلتزم بمثل ما التزموا به ، والذي التزموه هو هذا النهج وهذه السنّة** ، واللغة العربيّة وإتقانها .

ومتابعة تدبّر منهاج الله بالصورة التي عرضناها صحبة منهجيّةً صحبة عمر وحياة ، تعين المسلمين على أن يجددوا تدبّرَهم وممارستهم بهداية من الله ، وأن يجددوا إيمانهم كما جاءت الأحاديث الشريفة بذلك ، ونعيدها هنا لأهميتها وللتذكير بها :

فعن ابن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ :

« **إن الإيمان لَيَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَقُ الثوب . فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم** » (١)

وكذلك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ :

« **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها** » (٢)

وكما ذكرنا قبل قليل فإن التجديد المقصود في الإيمان هو أن يزداد ارتباط المؤمن بربه وخالقه في السرّ والعلن ، ويزداد ثقة بالله ، وإيماناً بكل ما جاء من عند الله على لسان رسوله ﷺ ، ليظل الإيمان يجدّد في النفس حياةً واطمئناناً وأمناً ، ويزداد التزاماً بالكتاب والسنة عن وعي ، كأنما هو نور يمتدّ ويشرق في القلب والممارسة .

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :١٥٩٠) . وأخرجه الطبراني والحاكم .
(٢) أخرجه أبو داود : ٣١/ ١/ ٤٢٩١ وفي صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :١٨٧٥) .

وكذلك التجديد في الدين هو استخراج الحلول من الكتاب والسنّة للمشكلات المتجددة في الحياة في كل عصر .

ومما يساعد على تجدّد الإيمان في القلوب دراسة الواقع ، وردّه إلى منهاج الله ، ليرى المؤمن من خلال ذلك آيات الله في الحياة والكون ، وسننه الثابتة التي لا تبديل لها . فيزداد المؤمن بذلك فهماً أعمق وأصدق للواقع ، وفهماً أعمق كذلك لدين الله وآياته وسننه الثابتة .

(٣)
مع الحديث الشريف
(من قُتل دون ماله فهو شهيد ...)

يكثر بعض الناس هذه الأَيام نسبة ما يبذلون من مال أو جهد أَو قتال أَو كلمة إلى أَنه في سبيل الله . وعسى أن يكون الجميع إن شاء الله صادقين . وقد كثر استعمال كلمة « **شهيد** » على كل قتيل ، حتى لو كان ملحداً أو من أهل الكتاب، أو منتسباً إلى الإسلام انتساباً لا ترافقه إقامة الشعائر ولا ذكر الله ولا علم بدين الله. وكثرة استخدام هذه المصطلحات « الإيمانية » توحي أحياناً باختلاط الصورة والتصوُّر والمفهوم لدى بعض القائلين .

ومع استمرار هذه الشبهة أو الخلل ، اتسع التساهل والتراخي حتى أصبح يقول بعض المسلمين « ... في سبيل الوطن » ، « أقاتل في سبيل الوطن » ، « أبذل في سبيل العائلة » ، « أضحي في سبيل القومية » ، وغير ذلك من التعبيرات المشابهة التي تستخدم كلمة « في سبيل » مع أي خاطرة تبدو لصاحبها .

وربما اختلطت في بعض الأذهان معاني بعض الأحاديث الشريفة مع أحاديث أخرى ، تستعمل هذه « في سبيل الله ... » ولا تستعمل تلك « .. في سبيل الله ... » .

ففي الحديث الشريف عن سعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : **(من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد)** [رواه أحمد] [1]

والحديث صحيح . وهنالك حديث آخر عن أبي موسى الأشعري. قال جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله : رأيتُ الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل

(١) أحمد : الفتح الرباني :١٤/ ٣٤ . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط:٣) حديث رقم (٦٤٤٥).

حميّة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال فقال رسول الله ﷺ **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)** [رواه أحمد والشيخان][1]

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : **(من غزا في سبيل الله وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً فله ما نوى)** [رواه أحمد والنسائي والحاكم][2]

والأحاديث الشريفة كثيرة حول معنى في « **سبيل الله** »، والآيات الكريمة آيات بينات تفصّل معنى في « **سبيل الله** » كذلك أدقَّ تفصيل حتى ، لا تترك مجالاً لمرتاب أَو سائل . لا نستطيع هنا أن نورد ذلك كله ، ولكننا نأخذ قبسات فحسب . ولا نستطيع أن نعرض الصورة كلها كما يعرضها منهاج الله ، ولكننا نأخذ جانباً منها .

من الأحاديث السابقة يتضح أنِ النيّة شرط رئيسِ في معنى«في سبيل الله» فلابد أن تكون النية خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى واعية لذلك ، حذرة من أن تنحرف فتضلَّ ، يقظةً لتدفع أي فتنة أَو ضلال .

وإخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى يقتضي أن يكون المسلم واعياً لما هو مقبل عليه ، مدركاً أن عمله خاضع لمنهاج الله وأحكامه ، لحديث رسول الله ﷺ عن عائشةِ رضي الله عنها :

(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) [رواه أحمد ومسلم][3]

وهذا شرط آخر لمعنى « **في سبيل الله** » ذلك أن يكون العمل خاضعاً لأحكام منهاج الله .

فإذا كان بعض المسلمين جاهلين لأَحكام منهاج الله ، فإِنهم يُقبلون على أعمال تدفعهم إليها العاطفة ، ويحسبون أن قصدهم « نبيل » ويريدون « الخير » ،

(١) أحمد : الفتح الرباني : ١٤/ ٢٠. صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط:٣) حديث رقم (٦٢٩٣).
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٦٢٧٧) .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٦٣٩٨) .

ويطلقون من التعبيرات ما يخفون به جهلهم أو انحرافهم ، ويحسبون بعد ذلك أنهم على شيء ، فإذا عملهم باطل مردود عليهم ما دام غير خاضع لأحكام منهاج الله .

من هذا كله ، ومن الآيات والأحاديث حين نتدبرها كلها نجد أن المعنى الرئيس لكلمة « في سبيل الله » هو منهج ودرب ممتد من الدنيا إلى الآخرة . ولا يصحّ استخدام كلمة « سبيل » أو « في سبيل » إلا لتدلّ على هذا الدرب الممتد والنهج المتماسك ، ليرتبط العمل الواحد مع ما قبله ، ومع ما بعده ، ارتباط نيّة وارتباط درب وهدف . وانظر إلى هذه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨]

نعم ! هذه سبيلي ... « **أدعو إلى الله ..** » ، « **.. على بصيرة ..** »، « **وسبحان الله ...** » « **وما أنا من المشركين** » كل واحدة من هذه القواعد ضرورة لتحقيق معنى في « سبيل الله » ، حتى تتضح صورة الدرب الممتد والنهج المترابط.

ويأتي التعبير « ... أنا ومن اتبعني » ليقرر شرطاً آخر : وهو أنه درب لا يختلف عليه المؤمنون ، ويمضون عليه في سبيل الله ، لا في سبيل شيء آخر ، أمة واحدة تتبع ما أُنْزِل من عند الله وما بلَّغهم إياه رسول الله ﷺ ، في إنابة وخضوع وخشوع . إنه درب حق ونهج حق ، ينطلق من نقطة واحدة على صراط مستقيم إلى غاية محدَّدة هي الدار الآخرة . فكيف يختلف المؤمنون الصادقون ، والمنطلق واحد ، والدرب واحد ، والغاية واحدة ؟ ! إنه في سبيل الله ! فكيف يختلف المؤمنون الصادقون إلا إذا اختلفت النيّة واضطربت ، أو اختلف العلم بمنهاج الله واضطرب ، أو تاهت الأهداف وتشعبَّت !

ونلاحظ دقّة التعبيرات الربّانية في آيات الله البيّنات وفي أحاديث رسول الله ﷺ تدبّرْ حديث رسول الله ﷺ : « **من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله**

ما نوى » . سار على الدرب بنية فاسدة ذهبت بالأجر من عند الله ، سار على الدرب مع المؤمنين ، على درب في سبيل الله ، حتى لا يظنّ أحد إلا أنه استكمل شروط «في سبيل الله» كلها . ولا ننسى قصة الرجل في غزوة خيبر الذي قاتل مع المسلمين حتى ظنّوا به كل الخير ، فأعلمهم رسول الله ﷺ أنّه من أهل النار . ولما وجدوه بعد ذلك، رأَوا أنه قتل نفسه غير متحمل الألَم .

هذا وجه من وجوه الفتنة أو الانحراف ، ومثل على دقة التعبيرات في الآيات والأَحاديث . ولنتدبر الحديثين الأولين السابقين «**من قتل دون ماله فهو شهيد ..**»، « **.. من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». لقد جاء التعبير في الحديث الأول : « من قتل دون ماله » ، ولم يقل : « من قتل في سبيل ماله، ذلك لأن التعبير : من قتل دون ماله ، يتضمن أموراً معلومة بالضرورة، فكلمة «من» هنا لا تعني أي إنسان . إنها لا تعني الكافر الملحد ولا المشرك . إنها تعني من قتل دون ماله وهو مؤمن ...» فالحديث يدور حول عمل المؤمنين الذين توافرت فيهم شروط الإيمان من صدق النيّة وصدق العلم بمنهاج الله . فالمؤمن حين يكون ماضياً في سبيل الله ، ماضياً على الدرب الممتد ، يحمل النيّة الخالصة ، متوجهاً إلى الهدف الأسمى إلى الجنة ، إلى الدار الآخرة ، إلى رضوان الله، فإنه يلقى على دربه قضايا متعدّدة قد يضطر إلى أن يقاتل دونها وهو على الدرب الممتد . فقد يقاتل دون ماله كما جاء في الحديث الشريف ، وليس في سبيل ماله . وقد يقاتل دون أرضه ، أو دون أهله ، أو دون وطنه ، وهو على الدرب الممتد يحمل النيّة ماضياً إلى الهدف الأسمى . فهو لا يقاتل إذن « في سبيل أرضه » ، ولكن يقاتل «دون أرضه » ، ذلك لأن في سبيل أرضه تعني أن أرضه هي الهدف الأكبر والأسمى، الهدف الذي لا هدف بعده . وهذا لا يُقرّه التصور الإيماني . ولو استعرضنا الآيات والأحاديث التي جاءت فيها كلمة «في سبيل الله » ، لوجدنا أنها تحمل دائماً النيّة الخالصة والدرب

الممتد والهدف الأكبر والأسمى الذي لا هدف بعده ، وهو رضاء الله والجنة . من هنا ندرك عظمة التعبيرات في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة حيث جاء في حديث رسول الله ﷺ : (من قُتل دون ماله ...) .

لا ننكر أن هذه التعبيرات والمعاني اختلطت في أذهان الكثيرين في واقعنا اليوم ، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور المثيرة للعواطف الحبيبة إلى النفوس ، كالوطن مثلاً ، وأمثاله . فقد أصبحت كلمة « الوطن » تتردد على الألسنة وترتفع شيئاً فشيئاً إلى درجة من التقديس ، ثم إلى درجة من العبادة .

فنجد من يقول مثلاً : قاتل في سبيل الوطن أو قُتِل في سبيل الوطن ، يموت في سبيل الوطن ، يَحيْا في سبيل الوطن . فقد كانت المغالاة هنا في استخدام كلمة «في سبيل الوطن » مجانبة دقة التعبير . وعسى أن لا تكون هذه المغالاة أو عدم دقة التعبير مظهراً لاضطراب التصوّر .

وترتفع المغالاة إلى درجة أعلى عند شوقي ، حتى يجانب الحق والتصور السليم حين يقول :

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه نازعتني إِليه في الخلد نفسي

وندعو لشوقي بالمغفرة والرحمة ، ولأمثاله ممّن مضوا إلى ربهم الله الذي لا إله إلا هو . ونعتقد أنهم الآن مشغولون بما هم فيه من وراء البرزخ ، لا تنازعهم نفوسهم إلى ديارهم ولا إلى شيء من الدنيا ، ولكنها تجأر إلى الله تسأله الرحمة والمغفرة.

ثم يرتفع تِقديس « الوطن » عند خير الدين الزركلي إلى درجة العبادة حين يقول :

لو مَثّلوا لي مُوْطني وَثَناً لهمَمْتُ أعْبُدُ ذلك الوثَنا

ولقد أَلِفَ بعضهم مثل هذه التعبيرات ، حتى أخذوا يبحثون عن مسوّغات

فنية أو فكرية ، حين تثير في نفوسهم الحميّة لهذا الأمر من أمور الدنيا أو ذاك ، أو حين يروق لهم ما يسمونه بالجمال الفنّي ، ليطغى على ما تقدّمه التعبيرات من انحراف فكري .

ولقد استُغلّت قضية الجمال الفنّي لتسوّغ الخروج عن الأدب والأخلاق، والانحراف إلى وحول الجنس وشهوة الجسد ووصف المفاتن . ويدور الخلاف حول قبول ذلك أو رفضه . ويمضي الانحراف ليمتّدّ وينتشر لا يعوق الخلافُ انتشاره وامتداده .

الأدب الملتزم بالإسلام ، أدب المؤمن ، يحرص على طهارة اللفظة والتعبير ودقتهما ، كما يحرص على طهارة المعنى ، ليخرج الجمال الفني الصادق من جمال اللفظة وطهارتها ، وجمال المعنى وطهارته ، ليصوغ هذا كله جمال الصورة والحركة.

والمؤمن الذي يتلقى الأدب يهتزّ ويطرب لهذا اللون من الجمال الفنيّ ، وينفر من الانحراف في اللفظة والمعنى مهما حمل من زخرف يهيج الحمية الجاهلية ، أو يلهب نوازع الشهوة .

إِن حقيقة التصور الإيماني هو الذي يجعل الولاء الأول لله ينبع منه كل ولاء في الدنيا ، والذي يجعل العهد الأول مع الله ينبع منه كل عهد في الحياة الدنيا ، والذي يجعل الحب الأكبر لله ولرسوله يَنبع منه كل حبٍّ في الحياة الدنيا ، إن هذا التصوّر الإيماني هو الذي يضبط اللفظة والتعبير والمعنى ، ويهب ذلك كله وضاءة الطهارة وإشراقة الفكر ودقة التعبير ، فتجيء الموهبة لتصوغ منه ذلك الجمال الفني المؤثر .

من أجل ذلك كان من قواعد الإيمان والتوحيد أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى المؤمن مما سواهما ، وأن يظهر هذا الحب الأكبر في الكلمة والتعبير في ميدان الأدب وفي ميدان الحياة العامة ، وأن يظهر في القصيدة وسائر أبواب الأدب ، وأن يظهر كذلك في المسعى والسلوك ، وفي الموقف والرأي .

إن أشياء كثيرة مادية تثير عواطفنا ، وشعارات تلهب مشاعرنا ، ورجالاً ينالون حبنا ، ولكنّ المؤمن يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، وأن يظل حبه لله ولرسوله هو الحب الأكبر في جميع حالاته :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة :١٦٥]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتؤكد هذه القاعدة الرئيسة من قواعد الإيمان والتوحيد ، وتغرسها في نفوس المؤمنين لتظل كلمتهم ورأيهم ، وسعيهم وموقفهم، أقرب للتقوى وأقرب لدين الله وشرعه .

نخلص من ذلك إلى أن كلمة « **في سبيل الله** » كلمة محدّدة المعنى والدلالة، ترتفع لتأخذ مكانتها العالية الأمينة في الفكر والعاطفة والممارسة . وهي تمثّل نهجاً ممتداً ودرباً ماضياً تدل عليه كلمة « في سبيل الله » ثم تمثل الهدف الأكبر والأسمى الذي لا يعلوه هدف ولا يأتي بعده هدف . إنه نهاية الدرب ، الذي يدل عليه اسم الجلالة ـ الله ـ في التعبير « في سبيل الله » ، وأن كل هدف أدنى من الهدف الأكبر والأسمى والغاية النهائية لا تصحّ معه كلمة « في سبيل » وإنما كلمات أُخرى مثل : من قُتِل دون ماله ، أو دون وطنه ، أو دون عرضه . ويكون في هذه المواقف كلها ماضياً على الدرب نفسه إلى الهدف الأكبر والأسمى . وتصبح كلمة « في سبيل الله » تضبط لنا الفكر والتصوّر ، والشعور والعاطفة ، والسلوك والموقف ، والكلمة والرأي .

وقد يتهاون بعض المسلمين ، حين لا تنضبط كلماتهم ، فيستخدمون في أدبهم نثراً أو شعراً كلمات من أهل الكتاب لا تتفق مع التصوّر الإيماني . مثل كلمة « الصليب » يستخدمونها في مواقف القبول والاستحسان .

نسأل الله أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد في نيّتنا وألفاظنا وسعينا ، وفي أدبنا وجهادنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

إن بلوغ الجنّة يقتضي المضي على هذا الدرب ، على هذا الصراط المستقيم دون الخروج منه أو الانحراف عنه :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام :١٥٣]

« في سبيل الله » صراط مستقيم ، ومسيرة مباركة تحمل مسؤوليات وتكاليف ربّانية تنطلق كلها من الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله ، لتمثل أهدافاً ثابتة على الدرب ومراحل معيّنة مترابطة ، كلُّ هدف يوصل للذي يليه ويمضي معه ، لتمضي الأهداف كلها معاً ولتقود إلى الهدف الأكبر والأسمى . إن بلوغ الجنّة يحتاج إلى مسيرة جادة فيها جُهد وبذلٌ وجهاد ، وفيها صبر و مصابرة . ولكن هذا يحتاج إلى الإرادة والعزيمة من اللحظة الأولى ، إرادة وعزيمة نابعتين من خشية الله .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

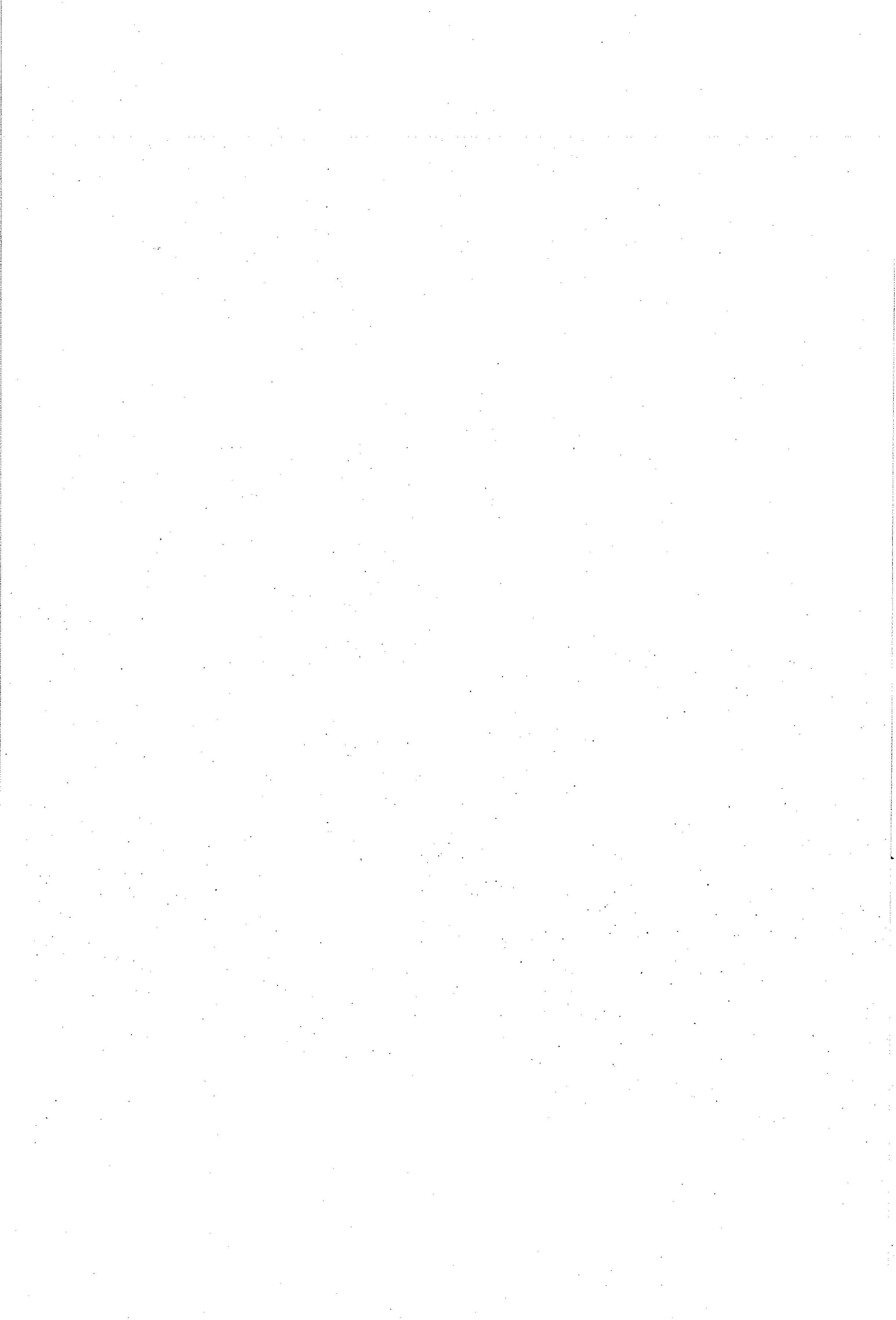
« **من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إنّ سلعة الله غالية ألا إنّ سلعة الله الجنّة** » [رواه الترمذي والحاكم في المستدرك] (١)

« **في سبيل الله** » مسيرة لا يصح فيها التوقف والقعود . وكيف يبلغ الجنّة من قعد عن التكاليف إلا برحمة من الله . ولا يصحّ فيها الانحراف ، فإنه فتنة وضلال وهلاك . والتوقُف يَفْصِل الأهداف والمراحل ويعطّلها ويعطل المسيرة، والانحراف خروج عن المسيرة كلها ، عن الأهداف والمراحل والهدف الأكبر والأسمى . ولا يصح السير دون زاد ، فكل رحلة لها زادها ، وكل مسافر يتزوّد ، وزاد المسيرة على درب « **في سبيل الله** » : الإيمان والتوحيد ، وتدبّر منهاج الله،

(١) الترمذي :٣٨/ ١٨/ ٢٤٥٠ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته : (٦٢٢٢) .

ووعيُ الواقع ودراسته من خلال منهاج الله ، فهذا هو الزاد الرئيس ، وعليه يقوم أيُّ زاد آخر ، ولا يصلح الزاد الآخر دونه في هذه المسيرة .

«**في سبيل الله**» تكاليف ربّانية متّصلة لا ينفصل بعضها عن بعض، يمضي بها المؤمن على صراط مستقيم ليوفي بالعهد ويؤدّي الأمانة التي حملها ماضياً من هدف إلى الهدف الأكبر والأسمى ـ الجنّة ورضوان الله والدار الآخرة ـ، على بصيرة ونور .



(٤)

مع الحديث الشريف
(ألا أُنَبِّئُكُم بخير أعمالكم وأزكاها ...)

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال :

(ألا أُنَبِّئُكُم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ! قالوا : بلى يا رسول الله ! قال: « ذكر الله ») . [رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم] [1]

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[آل عمران :١٩١]

لقد اختلفت الصورة والمعاني للحديث المذكور أعلاه لدى بعض المسلمين. ولو نظرنا في واقعنا لرأينا الكثيرين يتفلّتون من مسؤولياتهم ويركنون إلى القعود أو إلى الجري اللاهث خلف الدنيا بحجة مسؤوليتهم عن رعاية البيت والأولاد ، أو بأي عذر يتلمّسونه من خلال الوهن والعجز . وقد يكون هنالك من له عذره الشرعيّ في تخلّفه عن بعض التكاليف تحت ضغط واقع الحياة وإمكاناته . . !

إننا نتحدّث عن الملايين الذين لم يكن لهم عذر إلا الجهل والوهن وحبُّ الدنيا . وحساب الجميع عند الله ، ولكننا نذكّر أنفسنا ونذكر الناس وندعو ونلحّ ، عسى الله أن يهدي القلوب إلى النهوض والبذل على صراط مستقيم .

يلجأ بعض الناس إلى سوء تأويل الحديث الشريف : **(ألا أنبّئكم بخير**

(١) أحمد : المسند :٥/ ١٩٥ ، الفتح :١٤/ ١٩٨ . الترمذي :٤٩/ ٦/ ٣٣٧٤ . ابن ماجة : ٢٨/ ٥٣/ ٣٨٣٥ . المشكاة :٢٢٦٩ . صحيح الجامع الصغير وزيادته : ٢٦٢٩ .

أعمالكم وأزكاها عند مليككم .. قال : « ذكر الله ») . ويتوهّم هؤلاء أو يوهمون أنفسهم بأن هنالك عملاً خاصّاً اسمه « ذكر الله » ، معزولاً عن غيره من الأعمال ، يُغني عن كل سعي ، يغني عن الإنفاق والبذل والجهاد ، يجلس الإنسان من أجله يسبّح ويذكر اسم الله ، وقد يرافق ذلك ما يُزَيّنه الشيطان من حركات باطلة لدى بعض الناس من الجهلة والمنحرفين .

إذا كان قد ظهر مثل هؤلاء في التاريخ الإسلاميّ ، فإن الملايين الكثيرة اليوم من المسلمين قاعدون عن التكاليف الشرعية الربّانيّة ، قعوداً جعلهم على نماذج شتى .

فمنهم من اعتقد أن الشهادتين تكفيه ولا حاجة له إلى الشعائر ولا إلى البذل والدعوة وغير ذلك . ومنهم من اعتقد أن أداء الشعائر هو كلُّ ما هو مكلّف به ولا حاجة له إلى ما سواه . ومنهم من يقيم شعيرة ويترك غيرها ، وتمتدّ النماذج في واقعنا اليوم امتداداً كبيراً ، حتى شُلّت قوى كثيرة من المسلمين وتعطّلت ، وحتى أصبحت مرتعاً لأعداء الله ، يستفيد أعداء الله منهم ، ولا يستفيد الإسلام منهم بشيء .

ولكن الأغرب والأعجب هو أن يظنّ بعضهم أن القعود لما يحسبه « ذكر الله» وتعطيل نشاطه وعطائه أمر يطلبه الحديث الشريف السابق ذكره .

ولو استعرضنا الآيات والأحاديث الواردة عن « ذكر الله » لوجدناها كثيرة جداً ، لا يوجد بينها ما يشير إلى التصوّر الفاسد الذي أشرنا إليه . إنها كلها تحضّ على السعي والعمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

هنالك أسباب كثيرة للجوء بعضهم إلى فساد التأويل وفساد الفهم ، ومن ثمَّ فساد الممارسة . فربما كان الخلل في التصوّر الإيماني ، أو الخلل الواسع بفهم القرآن الكريم والسنة ، أو غلبة الأهواء ، من بين الأسباب التي تدفع إلى ذلك .

ولكنني أريد أن أشير إلى سبب آخر فقهي قد يقع فيه من كان له علم حسن بمنهاج الله . وهو سبب يؤدي إلى فساد التأويل في قضايا أخرى غير هذه القضية . هذا السبب هو أخذ النصّ من الكتاب والسنة أو أخذ جزء منه ، ثمّ دراسته معزولاً عن سائر النصوص المتعلقة به ، ومعزولاً عن قضايا أخرى متشابهة مرتبطة به . إن هذا العزل للنصّ يؤدي في كثير من الأحيان إلى سوء الفهم وسوء الممارسة والتطبيق واختلاف الفقه .

لو أنا أخذنا بذلك الفهم الخاطئ للحديث الشريف ، وقعد الناس عما أُنيط بهم من تكاليف ربّانية ، لتقلّص الإسلام في الأرض وفُتِنَ الناس ، وغلب الشرك وامتد .

يغيب عن بال هؤلاء أن القضية الأولى في حياة الإنسان على الأرض ، هي أنه يحمل أمانة يجب الوفاء بها ، وأنه محاسب على ذلك ، وأن عمله كله يجب أن يكون عبادة لله وطاعة له ، لتُمثِّل هذه الصورة الخلافة التي جُعلت للإنسان في الأرض. وهذه الأمانة والعبادة والخلافة ممتدّة متصلة مع ما أمر الله به من عمارة الأرض بحضارة الإيمان ، كل ذلك من خلال ابتلاء كتبه الله على بني آدم .

كل عمل يقوم به المسلم يجب أن يكون عبادة لله ، ويجب أن لا يعطل عملاً آخر . ولا يستقيم هذا التصور إلا إذا كان هنالك نهج متكامل يرسم المسيرة ويُرتِّب الأعمال ويُنزلها منازلها ، حسب أولوياتها ودورها .

فلا يجوز أن تُعَطَّل مسؤوليات البيت أو الوظيفة أو التجارة التكاليف الربانيّة، ولا أن تضطرب الموازنة بين مختلف التكاليف ليطغي تكليف على آخر. ولا يجوز أن يكون ميزان الأولويات ميزاناً يُزيِّنُه الشيطان من خلال الأهواء والمصالح: إن الميزان الحق هو منهاج الله فمن الناس من يقبل على (العُمرة) مثلا وهو تارك لبعض الفرائض .

من أجل هذه الموازنة ، ولتكون أمينة ، كان (**ذكر الله**) ضرورة للمسلم، حتى يبني المسلم موازنته على أساس من ذكر الله وخشيته وعلى أساس من المنهاج الرباني . فإذا غاب ذكر الله كما أمر به أو إذا انحرف عن منهاج الله فأنى للموازنة أن تعدل أو تستقيم ؟ !

ومع ذلك يبقى السؤال حائراً في أذهان الكثيرين : لماذا أخذ (ذكر الله) هذه المنزلة العظيمة في حديث رسول الله ﷺ ، حديثه السابق ذكره .

إن (**ذكر الله**) أخذ هذه المنزلة العظيمة حتى قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

[العنكبوت : ٤٥]

فجاء الحديث الشريف ليفصِّل هذا المعنى العظيم في الآية الكريمة : « **..ولذكر الله أكبر** » ! نعم إنه أكبر من كل الأعمال وخيرها ، وإنه أكبر عند الله وأزكى ، وإنه أكبر وأرفع في الدرجات ، وإنه أكبر وخير من إنفاق الذهب والورق « **ومن أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم** .. » !

نعم ! إنه أكبر من ذلك كله ، لأن كلَّ عمل من هذه الأعمال باطل غير مقبول عند الله إلا إذا ارتبط بذكر الله . (**فذكر الله**) هو العمل الوحيد الجامع لكل أعمال المسلم صغيرها وكبيرها . إنه النبع الذي يرتوي العمل منه ، والقوة التي تمدُّ كلَّ أعمال المسلم بالحياة والقوة وبالقبول عند الله ، ولا يوجد عمل آخر في الإسلام يقوم بهذا الدور العظيم . فكان لذلك كله أكبرَ الأعمال وأزكاها وخيرها.

ولذكر الله هو الذي يربط الأعمال فيما بينها ، ويرتبها حسب أولوياتها ، في جميع الظروف والأحول .

وذكر الله الذي تعنيه الآية الكريمة ويفصّله الحديث الشريف هو الثمرة

الزكية للإيمان والتوحيد وللعلم بمنهاج الله «**اتلُ ما أوحيّ إليك من الكتاب ...**»، وهو الثمرة الغنيّة لإقامة الشعائر «... **وأقم الصلاة**» ، وهو الثمرة الطيبة للبعد عن الفاحشة والمنكر « **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » ! .

ذكر الله ، كما يأمر به الله ، هو الذي يضع الأعمال كلها على صراط مستقيم، على نهج قويم ، على درب ممتد ليكون كلُّه « **في سبيل الله** » ، ماضياً من هدف ثابت إلى هدف ثابت ، يطلب الجنّة والدار الآخرة ـ الهدف الأكبر والأسمى .

إنه يجعل العمرة عبادة مرتبطة بغيرها من العبادات ، حتى لا تكون عملاً منعزلاً بنفسه مقطوعاً عن غيره . نعمت العمرة ونعمت السنن كلها حين تكون جزءاً من المسيرة المتكاملة والنهج المترابط بأهدافه ومراحله ، لا انقطاع ولا توقّف ولا انحراف .

إن ذكر الله هو الطِّيبُ الذي يزكو به العمل وينشر عبقه في الدنيا والآخرة.

فليس ذكر الله عملاً معزولاً عن الحياة ، أو عملاً مستقلاً عن سائر الأعمال: إنه يأخذ منزلته العظيمة من ارتباط الأعمال كلها به وارتباطه بها : الشعائر وطلب العلم ، والدعوة ، والإنفاق ، والجهاد ، والإحسان ، ورعاية البيت وأمانة الوظيفة وأمانة التجارة ، وكل ميدان عمل وسعي في الحياة الدنيا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « **كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه** » [رواه مسلم وأبوا داود والترمذي وابن ماجة][1]

نحن بحاجة اليوم إلى تركيز فقه آيات الذكر وأحاديثه في أبناء المسلمين على التصور الأمين ، وخاصة حديث رسول الله ﷺ الذي بدأنا به هذه الكلمة ، حتى تنطلق مواهب الأمة وطاقاتها مجتمعة متآزرة على صراط مستقيم .

إن ذكر الله كما رأينا لا يعطّل التكاليف الربّانيّة ، ولكنّه يغذّيها ويقويها

---

(١) مسلم :٢/ ٣٠/ ٣٧٣ ـ أبو داؤد : ١/ ٩/ ١٨ ـ الترمذي :٤٩/ ٩/ ٣٣٨١ ـ ابن ماجة :٢/ ١١/ ٣٠٣ .

ويدفعها إلى الميدان غنيّة قوية .

إن ذكر الله يوقظ القلب ويحيي النفس والعزيمة ، ويبعث النشاط والقوّة، ويذكّر بما أمر الله به . إن ذكر الله هو ذكر لأوامره وتكاليفه ودينه ، والأمانة التي حملها الإنسان ، وللموت والبعث والحساب والجنّة والنار ! إنه ذكر ممتدٌّ لكل قواعد الإيمان والتوحيد وقواعد منهاج الله ، لكل قواعد شرع الله ودينه الحق ، وأوامره ونواهيه .

إن ذكر الله ، على ضوء ذلك يرسم النهج ويمدّ الدرب ، ويقيم عليه الأهداف الربانيّة الثابتة معالم متلألئة متوهجة بالنور الفياض .

إن ذكر الله الذي تذكره الآية الكريمة والحديث الشريف ، هو الذكر الذي يصاحب المسلم العامل الناهض إلى مسؤولياته وتكاليفه ، ويصاحبه وهو يعمل ويسعى ويدعو ويربّي ويتعهّد ويبني ويجاهد ، وكل ذلك في سبيل الله . فذكر الله الذي تعنيه الآية والحديث ليس للقاعد الغافل ، ولا للذي يجري ويلهث خلف الدنيا ومتاعها .

أمام المسلم وهو ماضٍ في سبيل الله خطران : خطر الضعف والتوقف ، وخطر الانحراف . إن ذكر الله بشروطه الإيمانيّة يدفع من يتوقف ويمدّه بالعون لينطلق ، ويقوّم من ينحرف ليعود إلى الصراط المستقيم .

نعم ! ولذكر الله أكبر ! ولكن كثيراً من المسلمين اليوم يظل التصوّر في ذهنهم أَن (**ذكر الله**) يعني التسبيح بالأصابع واللسان في حركات تصدر منه وهو واعٍ لها أو غير واع ، ولكنه قابع في مكانه حين يكون واقع الأمة يدعوه إلى النهوض فلا ينهض ، ويحسب أن التسبيح الذي يقوم به يكفيه .

إن كلمة (**الذكر**) من أكثر الكلمات تكراراً وتأكيداً في الكتاب والسنّة . وفي جميع الحالات تظل الكلمة المرتبطة مباشرة باسم (**الله**) جلَّ جلاله أو باسم

من أسمائه أو بكتابه . وكذلك يرتبط (**الذكر**) مع جميع التكاليف الربانية . وخير ما نفعله لنوضح هذه الصورة هو أن نأخذ قبسات من كتاب الله :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر : ٢٢]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

فالذكر هنا هو القرآن الكريم أو هو تلاوته وتدبُّره .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : ١٤-١٥]

فلقد دفع ذكر الله المسلم الذي يزكي نفسه إلى النهوض إلى الصلاة ، ومن ثمّ النهوض إلى سائر الشعائر من صيام وحج وزكاة ، وإلى تسبيح ودعاء وغير ذلك .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ... ﴾ [الحج :٢٨]

﴿ ... فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة :١٩٨]

فارتبط ذكر الله هنا بالحج وشعائره ومناسكه . وتتوالى الآيات لتربط ذكر الله بمعظم المناسك في الحج أو جميعها .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ... ﴾ [الحج : ٣٤]

وهنا نرى كيف يمتدّ (**ذكر الله**) مع جميع الرسالات الربانيّة ، ويظلّ مرتبطاً بالمناسك والعمل والسعي .

وكذلك :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

فقد دفع الله هنا الاستغفار والتوبة . ما دام ذكر الله يصاحب المسلم في حياته، حتى حين يخطئ يكون ذكر الله هو القوة التي تعيده إلى الحق والتوبة والإنابة .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب :٢١]

فارتبط ذكر الله بالسعي الصادق إلى الدار الآخرة ، والسعي الذي يكون رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في هذه المسيرة ، وما فيها من دعوة وبلاغ ، وتربية وبناء ، وجهاد ماض في سبيل الله ، وغير ذلك من التكاليف الربانيّة .

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ . وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

[الزخرف :٣٥-٣٦]

ويصبح ذكر الله هنا هو الذي يدفع المؤمن إلى السبيل الحق والنهوض إلى ما فيه من تكاليف ربّانية ، ومن يعشُ عن ذكر الله وينس ذكر الله يتولاه الشيطان ويصدّه عن السبيل ويزيّن له الضلال ، حتى يحسب أنه مهتدٍ فيزيّن له القعود عن التكاليف التي أمره الله بها ، أو يفصلها بعضها عن بعض ليعطل هذه ويأخذ بتلك حسب هواه .

ذكر الله هو الذي يربط التكاليف الربانيّة كلها حتى تكون سبيلاً واحداً وصراطاً مستقيماً . واستمع إلى هذه الآيات الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة :٩-١٠]

وهنا (**فاسعوا إلى ذكر الله ..**) ، أي إلى صلاة الجمعة وما سبقها من

تلاوة لكتاب الله ، ودعاء وتسبيح ، وخطبة . وحتى إذا انقضت الصلاة ارتبط ذكر الله بالسعي في الأرض والانتشار فيها يبتغون من فضل الله ويذكرون الله في كلّ أمرهم ، وهم يدعون إلى الإسلام أو يعلِّمون أو يتعلمون أو يجاهدون .

ولنتدبر هذه الصورة من ذكر الله ، حيث يأتي الذكر في أعمال وأنشطة متعددة مترابطة على درب واحد قويم وصراط مستقيم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠]

إنه درب ممتد ، يَقوم المؤمن فيه بهذه الأنشطة والتكاليف الربانية ، وكل تكليف منها هو ذكر لله وعبادة له : قيام الليل ، تلاوة القرآن الكريم ، القتال في سبيل الله ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإنفاق في سبيل الله ، وإقراض الله قرضاً حسناً ، ليَغْنيَ امتداد العمل الصالح على هذا الدرب ، وعلى صراط مستقيم ، يصاحبه ذكر الله ، أو يكون هو نفسه ذكراً لله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون : ٩-١٠]

ارتبط ذكر الله هنا بالصراط المستقيم الممتد ، الذي لا يجوز للمسلم أن يلهيه

عنه أمواله ولا أولاده ، لتظل مسيرته على صراط مستقيم في سبيل الله ممتدّة مع ذكر الله ، أو هي كلها ذكر الله : (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله .) وارتبط كذلك بقضية الإنفاق في سبيل الله ليؤكد القرآن الكريم أهميتها ، ولأنها موضوع رئيس في السورة كلها ، ولأنها من أهم قضايا المسيرة في سبيل الله .

وصورة أخرى في سورة التغابن تربط العمل كله بالله سبحانه وتعالى . تربط العفوَ والتقوى والسمع والطاعة والإنفاق ثم الانطلاق في سبيل الله الممتد ، تربط هذا كله بالله وبذكر الله يأتي هذا كله من خلال آيات بيّنات في ذروة البيان الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [التغابن : ١٤-١٨]

ففي هذه الآيات البيّنات ارتبط الحذر والعفو والصفح والمغفرة بالله سبحانه وتعالى . جاء الأمر منه سبحانه وتعالى « فاحذروهم » ، وضرب الله للمؤمنين مثلاً من نفسه ليغفروا ويحذروا في هذا الموقف ، فالله غفور رحيم . وربط التقوى بالله: (فاتقوا الله ..) ، ثم ارتبطت بالله سائر التكاليف (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا.) وامتد السبيل في تعبير قرآني جامع معجز ممتدّ الظلال : (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ...) فكأنما العمل الصالح المرتبط بذكر الله قرض لله !

هذا كله هو ذكر لله ممتد في حياة المؤمن ، لترتبط أعماله كلها ، صغيرها وكبيرها ، بالله سبحانه وتعالى ، ليصبح ذكر الله هو الجامع لهذه الأعمال كلها ، والدافع ، والموجّة لها .

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[النور :٣٧-٣٨]

(لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ! ثم تلا ذلك الصلاة والزكاة إشارة إلى الشعائر التي هي الأساس الذي يقوم عليه الإسلام كله ، وعمل المؤمن كله ، ولا يُقْبَل العمل دون الوفاء بها ، كما يفيد حديث رسول الله ﷺ : (بُنيَ الإسلام على خمس ...)

(لا تلهيهم عن ذكر الله ...) ، عن العمل في سبيل الله ، عن الصراط المستقيم ، عن النهج الممتد الذي ينيره ذكر الله في كل سعي يمضي به المؤمن ليوفي عهده مع الله ، ويؤدي الأمانة التي حملها ، والخلافة التي جعلت له والعبادة التي خُلق لها من خلال ابتلاء وتمحيص .

ويوضح لنا سبحانه وتعالى هذا السبيل الممتدة والصراط المستقيم بآيات ، تصور لنا السبيل في أساليب متعددة شتى . ففي سورة الصف نجد الصورة التالية في آيات بيّنات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الصف :١٠-١٣]

صورة مشرقة ودرب جليّ مشرق ممتد ، يشرق بذكر الله في كل عمل فيه . (تؤمنون بالله ..) ! وهذا هو أول الذكر ، والقاعدة الرئيسية التي يقوم عليها كل عمل

بعد ذلك . وهل هنالك ذكر أشد من الإيمان به ، ثم الانطلاق للعمل بطاعته على صراط مستقيم . ويصوّر لنا القرآن الكريم هذا الصراط المستقيم بالجهاد في سبيل الله :

(... وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ..) فجاءت كلمات : (تجاهدون في سبيل الله ..) لترسم الدرب كله بعرض أهم التكاليف فيه لتدخل كلها فيه ، وليكون الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس معبّراً عن وفاء المسلم بالتكاليف الربانيّة كلها بتكاملها وترابطها ، ولتكون ذكراً لله ممتداً . وهل هنالك ذكر أعظم من الإيمان به والانطلاق إلى تكاليف الإيمان كلها ، والاستجابة إلى الله رسوله ؟ !

حقاً ! (... ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) إن الله يعلم ما نصنع ، وكيف نصنع ذلك ، وهل كان عملنا ذكراً لله أم لم يكن ! .

نرجو أن تكون صورة (ذكر الله) قد وضحت ومعناه قد بان ، من خلال الآيات البيّنات .

(فذكر الله) إذن ليس عملاً معزولاً أو يعزل أعمال المؤمن ويفصلها . إنه العمل الجامع الذي يربط عمل المؤمن كله بالله ، ويربطها كلها فيما بينها لتكون كلها مرتبطة بالله ، ولتكون كلها (ذكراً لله) .

ولذلك جاء التوجيه الربّاني للمؤمنين جلياً مؤكداً بمتابعة الذكر آناءَ الليل والنهار :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٣]

إنه ذكر الله ممتد في حياة المؤمن العامل القائم بالتكاليف الربانيّة ، المستجيب لله ولرسوله ، ليس بالتسبيح وحده ، وإنما بجميع ما يأمر به الله ورسوله . ولذلك جاء ذكر الله ليكون أمراً من عند الله وتكليفاً منه ، مع كل عمل المؤمن ، ليذكر

المؤمن ويطلق طاقاته وقدراته في سبيل الله .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٢-١٥٤]

يأتي التكليف بذكر الله : (... فاذكروني أذكركم ...) من خلال التكاليف الأخرى ، ليكون ذكر الله ممتداً مع أعمال المؤمن . يأتي الأمر بذكر الله ، لينهض المؤمن إلى ما جاء به رسول الله ﷺ من آيات بينات وكتاب مبين ، وإلى ما علَّمهم مما لم يكونوا يعلمون . وجاء الأمر وأعقبه الاستعانة بالصبر والصلاة ، لما في التكاليف من جهد وبذل يعظم حتى يبلغ الموت في سبيل الله .

وجاءت الأحاديث الشريفة توضح كذلك معنى ذكر الله ومنزلته في الإسلام :

فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(يقول الله عز وجلّ أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرتُهُ في ملأٍ خير منه . وإن اقترب إليَّ شبراً اقتربتُ إليه ذراعاً وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)

[رواه الشيخان والترمذي] (١)

وعن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ قال :

(مثل البيت الذي يذكر فيه الله والبيت الذي لا يذكر فيه الله كمثل الحي والميت) [رواه الشيخان] (٢)

ففي الحديث الأول توجيه للمسلم بأن يذكر الله سبحانه وتعالى في نفسه وفي

(١) البخاري : ٩٧/ ١٥/ ٧٤٠٥ . مسلم : ٤٨/ ١/ ٢٦٧٥ .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط:٣-(رقم :٥٨٢٧) . مسلم :٦/ ٢٩/ ٧٧٩ .

ملأٍ من الناس ، وبأن يقترب إلى الله ! وبماذا يقترب إلى الله ؟ بالطاعة والعمل الصالح والاستجابة لأمره . فاقترن ذكر الله هنا بالعمل والسعي للتقرّب إلى الله بالعمل والبذل لا بالقعود ، حتى يقترن العمل كله بذكر الله ، وبالله ، وليكون في سبيل الله .

وفي الحديث الثاني يظل ذكر الله نديّاً غنيّاً في البيت ، وفي بيت المسلم ، ليحيا البيت ولا يكون ميتا وكذلك الحديث الآخر عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ:

(مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثل الحي والميت)

[رواه البخاري] (١)

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به . قال :

(لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله) [رواه الترمذي] (٢)

هكذا يأتي السؤال : أخبرني بشيء أتشبّت به ؟ ! أي عن شيء يلازمه في كل أحواله وعمله ، على ضعف وُسْعِه وطاقته . وهكذا أتى الجواب : (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله) . فذكر الله هو العمل الذي يلازم المؤمن في جميع حالاته ومع جميع أنشطته وأعماله . فلا يعني الحديث أن يفصل ذكر الله عن مسؤولياته وتكاليفه التي يقوي عليها في حدود وسعه كما عرضناه .

هكذا يجب ذكر الله والصلاة على رسوله في كل مجلس يجلسه المؤمنون : فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

(ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة « نقصان وحسرة » فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)

[رواه الترمذي] (٣)

---

(١) البخاري : ٨٠/ ٦٦/ ٦٤٠ .
(٢) الترمذي : ٤٩/ ٤/ ٣٣٧٢ .
(٣) الترمذي :٤/ ٨/ ٣٣٧٧ .

فعن الأغرّ أبي مسلم أَنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال :

(ما من قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) [رواه الترمذي][1]

وهكذا يمتدّ ذكر الله مع المسلم في نفسه وفي بيته وفي مجالسه، ويمتد إلى جميع الميادين.

وإذا أخذنا جانباً من ذكر الله وهو الدعاء ، فقد سنّ الإسلام للمسلم الدعاء في جميع أحواله : عند نومه واستيقاظه ، وخروجه ، وفي طريقه إلى المسجد أو عمله، وفي دخوله المسجد ، وعند دخوله بيته وعند الطعام والشراب واللباس ، والخطبة والنكاح، والجماع ، وفي مجلس دعوة وبلاغ ، وفي ميدان الجهاد ، وفي كلّ موقع ومع كل حالة .

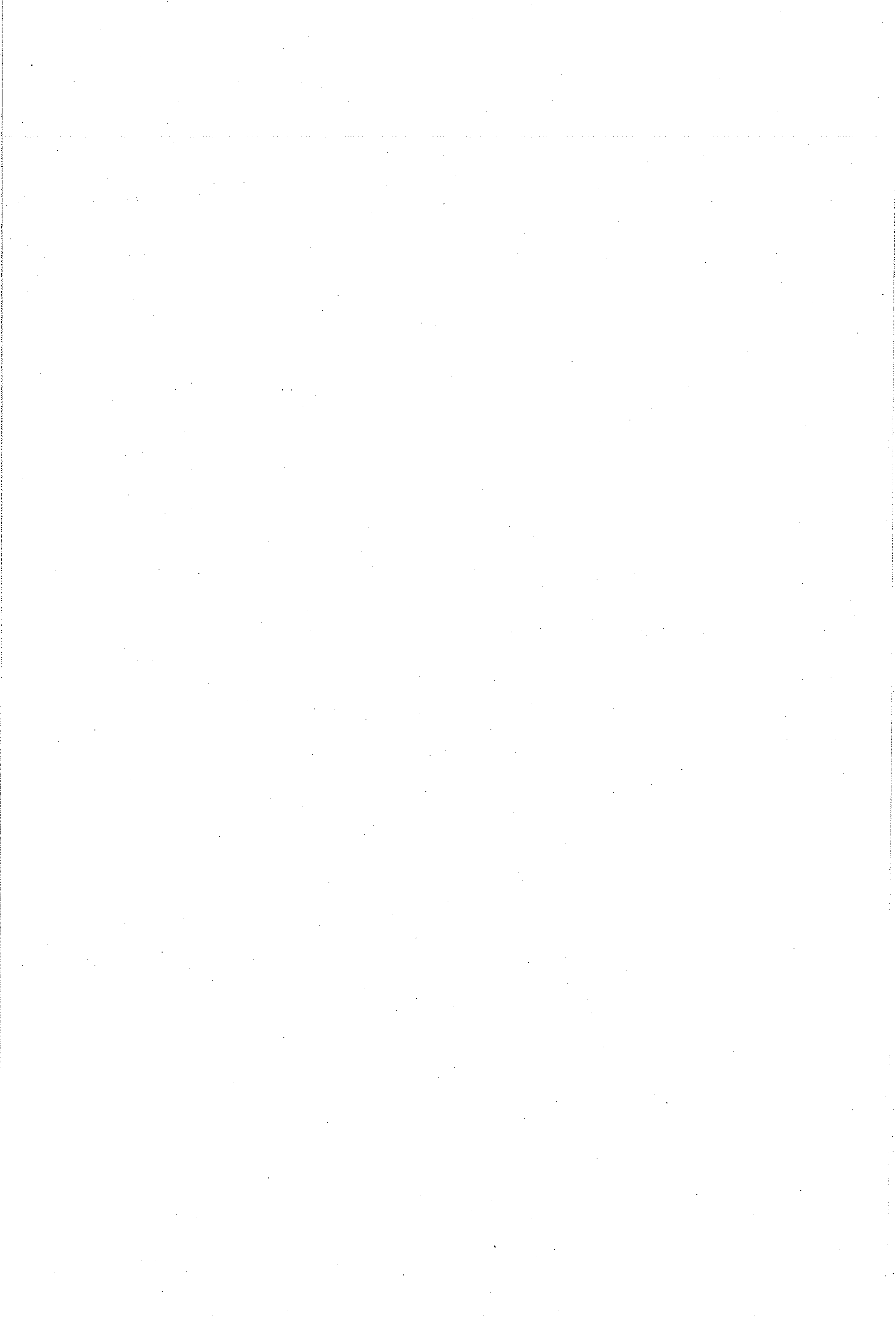
فذكر الله : تسبيح ودعاء يرافق المسلم في جميع أحواله ، وطاعة وعبادة يؤديها من تلاوة أو صلاة أو سائر الشعائر ، ومن طلب العلم ، ومن دعوة وبلاغ ، وتربية وبناء ، وجهاد في سبيل الله ، وفي كل ميدان يخوضه المسلم باسم الله وفي سبيل الله ، كل هذا هو ذكر متصل لله .

وذكر الله على ضوء ما سبق يمكن أن نقسمه قسمين للتوضيح والتيسير ، علماً أنهما في الواقع متصلان يكونان تصّوراً واحداً مترابطاً متناسقاً :

القسم الأول : الدعاء والتسبيح .

القسم الثاني : كل عمل صدقت فيه النية الخالصة لله فكانت النيّة ذكراً لله ممتداً مع العمل ، وخضع في مسيرته لدين الله وشرعه ، ماضياً على صراط مستقيم ، مرتبطاً بالله ، متجهاً لله وللدار الآخرة ، ماضياً في سبيل الله ، مرتبطاً بالدعاء والتسبيح .

(١) الترمذي : ٤٩/ ٧/ ٣٣٧٥ .



(٥)

مع الحديث الشريف
(لا يحلُّ دم امرئ مسلم يشهد ...)

جريمة القتل قديمة في تاريخ الإنسان . وهي أول جريمة ترتكب على الأرض حين قتل أحد ابني آدم أخاه حسداً منه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧-٣٠]

وامتدّت هذه الصورة في تاريخ البشرية حيث تبرز نظرتان مختلفتان : نظرة نابعة من الإيمان بالله ومن خشيته ، ونظرة نابعة من أهواء الدنيا من حسد وظلم وعدوان آثم . وكلّ ذلك على قدر من الله غالب وقضاء نافذ وحكمة لله بالغة ، حين جعل الله بحكمته الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، تُبتلى فيها النفوس ويُمَحَّص ما في الصدور حتى تُكْشَفَ في الدار الآخرة على موازين قسط :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء :٤٧]

وامتدّت الجريمة في الأرض ، على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأمم والشعوب ، جرائم ممتدة يقوم بها المجرمون المعتدون الظالمون ، حتى امتلأ التاريخ البشريّ بالمجازر والدماء والأشلاء .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يترك الحياة يدفعها المجرمون وحدهم ، فبعث

الله الأنبياء والمرسلين ومن آمن بهم واتبعهم ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس ، وليبيّن للناس سبيل الحق والعدل ، وسبيل الأمن والسلام ، وشرع الله للناس شرعه الحق لينظم الحقوق والمسؤوليات ، والقضاء والحكم ، على أسس ربّانيّة تنتظم فيها الحياة ، في دين واحد حملته رسالات الأنبياء ، هو دين الإسلام .

وظلت الأهـواء والعصبيات الجاهليّة وتنافس الدنيا وصور الجرائم وبخاصة جرائم القتل ، وظلت شريعة الله تقاوم الجريمة وتنير سبل السلام . وفي جميع الحالات تبقي المسؤولية مسؤولية الإنسان نفسه ، مسؤولية الشعوب ، لتختار هي بنفسها سبيل الحق الذي جاء من عند الله فتنصره فتكسب عزّ الدنيا والآخرة، أو تضعف دونه فتخسر الدنيا والآخرة ، على سنن ثابتة لا تتغير ، أو تُحرِّف آيات الله وتبدِّلها فيضلّ الناس بذلك ، حتى جاءت الرسالة الخاتمة التي بعث الله بها محمداً ﷺ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

وحملت الأمة المسلمة التي اختارها الله والتي جعلها خير أمّة أُخرجت للناس ، حملت هذه الأمةُ المسؤولية بعد النبوة الخاتمة ، لتتابع تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة ولتتعهّدهم عليها .

ومن خلال هذه المسؤولية العظيمة خاض المسلمون ميادين الحياة يبلغون ويتعهدون ، وينشرون الأمن والسلام ، ما استمسكوا بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ، حتى إذا انحرفوا أو تهاونوا أو هانوا مضت عليهم سنن الله الثابتة ، وظلوا في جميع الأحوال مسؤولين عن مدى وفائهم بالأمانة والعهد ، ومحاسَبين بين يدي الله عما فعلوه أو بذلوه .

وذاق المسلمون في تاريخهم الطويل أهوال القتل وجرائمه يندفع بها المجرمون الذي لم يعرفوا حلاوة الإيمان وفضل الإسلام ، ذاق المسلمون ذلك كلما وهنوا أو هانوا أو ضعفوا وضعف التزامهم بدين الله ، وضعف وفاؤهم بالأمانة التي حَملوها،

فمضت عليهم سنن الله ، يستضعفهم المجرمون قتلاً وتشريداً ، وإذلالاً وهوناً .

أنظر كم أَصاب المسلمين مِنْ قتْل في الحروب الصليبيّة ، وكم أصابهم من ذلك في الأندلس ، وفي الهند ، والجزائر وليبيا وسائر شمال أفريقيا ، والصومال ، ولبنان ، والعراق ، وأفغانستان ، وغيرها من ديار المسلمين .

ذاك كله ابتلاءٌ من الله سبحانه وتعالى ، أو عقاب لما كان فينا من انحراف أو ضعف واستكانة ، ولكن الابتلاء الأكبر من الله سبحانه وتعالى ، والعقاب الأشد منه هو ما يقوم به أعداء الله في بثّ الفتن والفساد بين المسلمين ، واستدراج بعضهم ضد بعض ، وإثارة الخلافات واستغلالها ، حتى اشتعل القتال بين المسلمين أنفسهم، يقتل بعضهم بعضاً ويأسر بعضهم بعضاً ، ويذلُّ بعضهم بعضاً في أجواء مجنونة من الخلاف لا تكاد تجد ما يسوّغها إلا تنافس الدنيا أو العصبيات الجاهلية من حزبية أو إقليمية أو عائلية ، وتمزّقت الأمة شيعاً وأحزاباً ، واستراح المجرمون وهم يرون المسلمين قد كفوهم مؤونة قتلهم وأسرهم ، واستباحة ديارهم !

وقد صدق فينا حديث رسول الله ﷺ :

عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأصفر . وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يهلكها بسَنَة ، وأن لا يسَلّط عليهم عدوّاً من سوى أَنْفُسهم فيستبيحَ بيضتهم. وإنّ ربي قال لي : إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدّ . وإني أعطَيْتُ لأمّتك أن لا أهلكهم بسَنةٍ عامة ، وأن لا أسلّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستَبيحَ بيضتَهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**».

[أخرجه الترمذي وقال حسنٌ صحيح][1]

(١) صحيح الترمذي ـ كتاب الفتن : ٣٤/ ١٤/ ٢١٧٥ .

نعم ! صدق رسول الله ﷺ ! « ... حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً ... » ! وهذا أدق وصف لواقعنا اليوم ، فقد تحوّلت الجهود من مجابهة اليهود إلى أن يجابه بعضنا بعضاً ، ويأسر بعضنا بعضاً ، ويهلك بعضنا بعضاً ! وأصبح المجرمون في الأرض ، أعداء الله ، يجدون من المنتسبين إلى الإسلام من يوادّهم وينصرهم ، ويستعين بهم على ضرب دار الإسلام وتحكيمهم برقاب كثيرين من المنتسبين إلى الإسلام ، فتفتح لهم الديار وتفتح لهم القلوب ، وفتمزّق المسلمون شيعاً وأحزاباً ، ومصالح دنيوية وأهواء ، يوالون أعداءهم ويغضبون الله بذلك : ولنستمع إلى آيات الله نوراً يشقُّ لنا الدرب وتهتدي به القلوب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[الممتحنة : ١-٣]

وتمضي سورة الممتحنة وآياتها البيّنات تفصّل العلاقات وتبين حدودها ، وكذلك آيات أخرى في سورة البقرة وآل عمران والمائدة وغيرها من السور ، لتكون العلاقة بين المؤمنين والمشركين جليّة بيّنة لا لبس فيها ولا غموض . وقبسات أخرى في سورة المائدة :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٠-٥٢]

إن هذا لبعضٌ من إعجاز كتاب الله ، يستعرض فيه الزمن كله ، كأنك تقرأ فيه ما جرى بالأمس ، وما يجري اليوم ، وما سيجري غداً ، على سنن الله ثابتة ماضية لا تتبدّل أبداً .

والقضية الرئيسة التي يجب أن نتبعها من هذه الآيات الكريمة أن المرض والخلل هو أولاً في أنفسنا نحن المسلمين ، وأن أعداء الله المجرمين لا يمكن أن يتمكنوا من إيذاء المؤمنين إلا حين يهون المؤمنون ، ويضعف المسلمون ، ويخالفون أمر الله وأمر رسوله في هذه القضية أو تلك ، تغريهم الاجتهادات البشريّة التي لا تستند على أيِّ قاعدة ربانيّة ، فيضعف المسلمون أنفسهم بما كسبت أيديهم ، وإذا هم يدعون إلى العلمانيّة والمذاهب الحداثية والديمقراطية ممالأة للمجرمين في الأرض ، فيحل عليهم عذاب الله ، على الصالحين والمفسدين جميعاً .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال :٢٥]

وانظر إلى هذا التعبير المعجز المليئ بالصور والحركة في الآيات من سورة الأنفال :

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ....﴾

نعم ! يسارعون فيهم ، فيوادونهم سرّاً كأن الله لا يراهم ، والله سبحانه وتعالى محيط بما تعلمون .

فمن المسلمين من يسارع سِرّاً ، ومنهم من يسارع جهراً ، وفي الوقت نفسه لا يسعون إلى إخوانهم المسلمين يوادونهم كما يأمرهم الله ، وإنما يقطعون معهم الصلاتِ والودّ ، ويجاهرونهم العداء والبغضاء .

وفي زحمة تناقض المصالح وثورة الأهواء وتنافس الدنيا وغلبة العصبيات الجاهلية ، يتسلّل الشيطان إلى النفوس ليزيّن لها جريمة القتل ، فيقتل المسلمُ المسلمَ، دون أن يتذكر أوامر الله ونواهيه . فلا يكون القتل خاضعاً لشريعة الله وأحكامها ، ولكن الفتنة في النفوس تزيّن الجريمة لصاحبها ، حتى ينسى أحكام الإسلام آيات وأحاديث ، ثم يسوّغ جريمته بأسباب يبدعها من عند نفسه ، ولو أدى ذلك إلى تحريف بعض الآيات والأحاديث ، ولكن الآيات المتعلّقة بجريمة القتل محكمة جليّة .

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء :٩٣]

إن تنافس الدنيا والحميّة الجاهلية وأمثالها من النوازع النفسية المنحرفة أو المريضة تثير في النفس الرغبة في جريمة القتل وتنسي المسلم أن يردّ القضايا إلى منهاج الله ودينه وأحكامه ، كما حدث بين ولدي آدم عليه السلام مما عرضناه في أول هذه الكلمة . وإن هذه النوازع النفسيّة تنسي المسلم بعض ما كان يرفع من شعارات مخالفة للإسلام ، فيقع في جريمة جديدة يخالف فيها أحكام الإسلام .

كان بعض المسلمين في فلسطين وفي قطاع غزة يقولون : الدم الفلسطيني حرام ، ودوّى هذا الشعار ، حتى خُدِعت به بعض النفوس ، واستغلّته نفوس أخرى ، فأقدمت على قتل الفلسطيني ولم يعد الدم الفلسطيني حراماً . والشعار ذاته مخالف للإسلام ، فالدم الحرام محدّد في الإسلام على غير أسس جاهلية أو عصبيات قومية أو خلافات عائلية أو صراع حزبي أقرب للجاهلية منه للإسلام . وفي أجواء المسلمين اليوم يسهل تسويغ هذه الجريمة أو تلك بشعارات لا تلتزم أمانة الفقه في الإسلام ، من خلال ما يغلب من جهل واسع بالإسلام بين كثير من المسلمين اليوم ، وما يغلب من مصالح مادية دنيوية على بعض النفوس . وربما تقنع هذه

الشعارات فريقاً وتغضب فريقاً آخر . ولكن الأمر أخطر من إقناع فريق ، إن الأمر يجب أن يكون في رضا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، يوم توضع الموازين القسط ، وتسقط موازين الدنيا وموازين أهوائها وتنافسها وعصبياتها الجاهلية :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء :٤٧]

يجب أن يكون الهمُّ الأكبر في قلب المؤمن خشيته من الله وصفاء إيمانه وصدق علمه بمنهاج الله ليردّ الأمر إليه ، إلى منهاج الله ، ليأخذ الحكم منه ويلتزمه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون :٦١]

هؤلاء يتجهون إلى الله بقلوب يملؤها الإيمان والعلم قبل أن تقدم على جريمة القتل . فولدا آدم ، كما ذكرنا في أول هذه الكلمة كان أحدهما متجهاً إلى الله، وكان الآخر يدفعه الحسد بعيداً عن صفاء الإيمان والخشية من الله فقتل أخاه .

ويتذكر المؤمن الآيات والأحاديث تنير له الدرب وتحدّد له الاتجاه والموقف:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيّب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** »

[رواه أحمد والشيخان] [1]

هناك الموقف الحق بين يدي الله يوم القيامة :

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم :٧٦٤٣) .

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الدخان : ٤١-٤٢]

ربّما تقنع الشعارات المدوية طائفة من الموالين للقتلة على عصبيات حزبية ، ولكنها لا تُرضي الله سبحانه وتعالى مهما دوّت بها الحناجر . وسيظل في نفوس القتلة المجرمين قلق وريبة يحاولون إخفاءها ، ولكنها تظل تقرع القلوب وتنشر فيها الألم والخوف .

وعن عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ قال : « **لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل زنى بعد إحصان ، أو ارتدّ بعد إسلام ، أو قتل نفساً بغير حق فيقتل به** »

[أخرجه أحمد والنسائي ، وعن عثمان رضي الله عنه أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم][1]

لقد أصبح بعض المسلمين يستحلون دماء بعضهم بعضاً ، يغفلون جرائمهم فيحلّون ويحرّمون على هوى في النفوس ، دون الالتزام بالكتاب والسنة ويصدّون عن سبيل الله .

كم يتمنى كثير من الناس أن يروا الإسلام الحق كما أنزل من عند الله مطبّقاً في الواقع ، متمثّلاً بسلوك الفرد المؤمن ومواقفه ونشاطه ، ومتمثّلاً بنهج الجماعة والأمة ومواقفها الإيمانية في جميع ميادين الحياة .

لقد استطاع أعداء الله أن يُشغلوا المسلمين بفتن هائجة يثيرونها فيهم ، وبقضايا ثانوية تصرفهم عن قضاياهم الرئيسة ، بعد أن اضطرب الميزان في أيديهم أو ضاع من بين أيديهم ، فتركوا كثيراً من القضايا الرئيسة ، قضايا الإسلام ودعوته وتبليغها إلى الناس كافة ، دعوةً ربانيّة واحدة ، وجمع كلمة المؤمنين أمةً واحدةً في الأرض كلها ، أمةً واحدة ، وديناً واحداً ودعوةً ربانية واحدة . شُغِل المسلمون عن هذه القضايا الرئيسة لهوان في النفوس ، وغزو المجرمين في الأرض . واستحرّ

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ٧٦٤) .

القتل بالمسلمين ، واستهانوا بدمائهم ، وزاد ابتعادهم عن دين الله ، وزاد ابتلاء الله وعقابه، فشغلوا بصراع الانتخابات والبرلمانات وما تثيره من أحقاد وصراع ، وشغلوا بتنافس الدنيا وطلب زخرفها وزينتها .

على ماذا يختلف المسلمون أو يقاتل بعضهم بعضاً ؟! أعلى تحرير فلسطين وإلقاء إِسرائيل في البحر ؟! لقد انكشف الواقع وبانَ عجز المفاوضات وعجز المقاومة عن تحقيق ذلك ، وأخذت المقاومة تقترب من طلب السلام ورجائها . ولو أن ضجيج الشعارات سيظل يدوي زمناً حتى ينتهي دوره ، وكلٌّ يحاول جاهداً لينال جزءاً من «الكعكة» ! وأخشى أن لا تبقى «كعكة» ولا جزءٌ منها .

ولقد بان أن أعداء الله يمسكون بالخيوط كلها ، ويحرّكون الأحداث على قدر من الله غالب وقضاء نافذ وحكمة بالغة !

إنه ابتلاء من الله وتمحيص للمؤمنين وغير المؤمنين ، حتى تكون الحجة يوم القيامة لهم أو عليهم . ولكننا اليوم في واقعنا نرى مظاهر الوهن والضعف والذلة، وذهاب مهابتنا من قلوب أعدائنا . وامتداد الخلافات بين المسلمين ، وامتداد الصراع والقتل !

من خلال هذا الوهن ، تجمع على المسلمين بلاء بعد بلاء ، ومازالت المصائب تمتد وتتوالى ، كل ذلك بما كسبت أيدينا . ومازال بعضنا يقتل بعضاً ، ومازالت جريمة القتل ممتدّة فينا ، سواء بأيدينا نحن المسلمين ، أو بأيدي أعداء الله الذين استباحوا ديار المسلمين .

وأخيراً : لو نظر المسلمون في واقعهم وواقع أعدائهم ، لوجدوا أن الخلل الكبير فينا ، خلل التمزّق والهوان الذي أورثنا الهزائم في تاريخ غير قصير ، وجعلنا نستخف بدماء بعضنا بعضاً ، وسهل فينا الاستهانة بجريمة القتل . وكنا أمة ممتدة في الأرض برسالتها الإسلام ، يهابنا أعداء الله ، فتغير الحال بما كسبته أيدينا حتى صرنا على ما نحن عليه .

وكان اليهود كما كنا نسميهم شُذّاد الآفاق لا يملكون شيئاً إلا المكْر والتخطيط والسعي المنهجي . وكنا نحن في أرض فلسطين نملكها بفضل من الله ونعمة ، فما رعينا حقّ النعْمة ، فأخذ اليهود يتقدّمون شيئاً فشيئاً حتى ملكوا فلسطين وخسرنا نحن فلسطين . مضى اليهود شعاراً واحداً ، ونحن شعارات متعددة ، وكان اليهود بالرغم من اختلاف أحزابهم صفّاً واحداً بالنسبة لمطامعهم ، وكنا نحن صفوفاً ممزّقة . فأخذتنا الهزائم ونحن نعلن مع كل هزيمةٍ : «انتصرنا» ! « انتصرنا » دون حياء ! وتقدّم اليهود حتى ملكوا فلسطين ، وصرنا نحن نساومهم أن يمنحونا قطعة صغيرة نقيم عليها دولة مسخاً لتظل خاضعة لهم ولأعوانهم . وظلّ اليهود يردّدون حقّهم في فلسطين بناء على ما حرّفوه من التوراة وكذبوا به على الله ورسوله ، ولكن ظلّ لهم شعار واحد ودعوة واحدة ، ونحن نجعل من فلسطين كل حين قضيةً بشعار جديد ! فيوماً هي قضية فلسطينية أُقنعت الشعوب المسلمة بذلك ، وحيناً آخر هي قضية عربية ، أما الإسلام وحكمه فيها فأخذ يغيب عن التصريحات والبيانات السياسية والتوجيه العام . ونحن تراجعنا بشعاراتنا ومواقفنا واليهود يتقدّمون خطوة خطوة ، وأصبحوا الآن يطالبون بجرأةٍ وتحدٍّ بالاعتراف بدولتهم على أنها دولة يهودية . يغيب صوت الإسلام عند حملة قضية فلسطين من المسلمين ، ويعلو صوت « اليهودية » عند اليهود ، ومن خلال ذلك يَقْتُل المسلمون بعضهم بعضاً ، ويقتل الفلسطينيون بعضهم بعضاً في صراع محموم وتنافس على الدنيا مكشوف ، وتبقى جريمة القتل بغير حق أسوأ جريمة تُرْتكبُ على الأرض ، تفسد حياة الإنسان وتملأ الأرض ظلماً وجوراً ما دامت لا تخضع لشرع الله .

إن مخالفة شرع الله في أي ميدان من ميادين الحياة إفساد واسع لحياة الإنسان، ونشر للفتنة والظلم ، سواء أشعر الإنسان فوراً بذلك أم شعر بعد حين .

(٦)
مع الحديث الشريف
(ثلاث من عمل الجاهلية لا يتركهن ...)

الحمد لله على ما منَّ به علينا من نعمة الإيمان ، وما تفضل به من جزيل العطايا والهبات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سابغ النعم ودافع النقم وفارج الكربات ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، أكمل الخلق وأكرمهم ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

قال سبحانه تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...** ﴾

إن أُخُوَّة الإيمان أَمر مِن عندالله ، ثابتة بالكتاب والسنة . ويتعرّض المسلم والجماعة والعمل الإسلامي إلى بعض المواقف التي يُمحَّص فيها الإيمان وصفاؤه ، والعلم وقوّته ، والوعي وامتداده . ومن خلال أَحداث الحياة وسنن الله يمضي هذا الابتلاء والتمحيص على درجات متفاوتة في الشدّة أَو الخطورة . وقد تظهر من خلال ذلك كله أمراض وعلل في جسد الدعوة ، فإن تُرِكت نمتْ واستشرت ، وإن عولجتْ هدى الله من يشاء إلى الحق بإذنه .

ونريد أَن نعرض هنا إلى مرض يسهل انتشاره وامتداده ، لأنه يلامس العاطفة المغروسة في الإنسان . ولكن هذا المرض يدفع العاطفة إذا لامسها إلى الانحراف عن نهج الإيمان ، ويغذيها في هذا الاتجاه المنحرف . وإذا استمرّ الانحراف يتحوّل إلى فتنة وضلالة كبيرة .

إن العصبيات الجاهلية حرّمها الله ورسوله ، وحذر منها رسول الله ﷺ في أحاديث له كثيرة ، وفي مناسبات كثيرة ، لشدّة خطورتها ولم يكتف رسول الله ﷺ بالنهي وإنما امتد ذلك إلى العلاج الذي يجب أن يمتد مع الزمن . ونذكر هنا بعض تلك الأحاديث :

ولقد أَشار الرسول ﷺ إلى ذلك في أَكثر من مناسبة وحديث . فعن أَنس رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « **ثلاث لم تزلْن في أُمتي : التفاخر بالأحساب ، والنياحة والأنواء** »[1] .

نعم ! التفاخر بالأحساب والاعتزاز بها وبأمثالها من العصبيات الجاهلية ، من إقليمية إلى قومية إلى غيرها . ويوضح حديث آخر ارتباط هذه القضايا الثلاث بالجاهلية وأفكارها وعاداتها .

فعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال : « **ثلاث من فعل الجاهلية لا يدعهن أهل الإسلام : استسقاء بالكواكب وطعنٌ في النسب والنياحة على الميت** »[2] .

وفي رواية أحمد بن حنبل : « **ثلاث من عمل الجاهلية لا يتركهن أهل الإسلام : النياحة على الميت ، والاستسقاء بالأنواء وكذا . قلت لسعيد وما هو ؟ قال دعوى الجاهلية يا آل فلان يا آل فلان** »[3] .

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عزوجلّ قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقيّ ، وفاجر شقي . أَنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعنَّ رجال فخرها بأقوام ، إنما هم فحْم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن** » . [أخرجه أبو داود والترمذي][4]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (ج:٣) (ص:٦٤) حديث (٣٠٣٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٧٩٩) .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (ج:٣) (ص:٦٤) حديث (٣٠٣٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٨٠١) .

(٣) الفتح الرباني : (ج :١٩) ، (ص:٢٨٤) .

(٤) سنن أبي داود : كتاب الأدب (٣٥) . باب (١٢٠) . حديث (٥١١٦) . الترمذي في المناقب (٥٠) باب (٧٥) . حديث (٣٩٥٥) ، (٣٩٥٦) .

وعن بنت واثلة بن الأسقع أنها سمعت أَباها يقول : قلت : يا رسول الله، ما العصبية ؟ قال : « **أن تعين قومك على الظلم** » . [رواه أبو داود وابن ماجة] (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قاتل تحت راية عِمِّيَّة ، يدعو إلى عصبية ، أَو يغضب إلى عصبية ، فقتْلُه جاهلية » . « أي فقتاله جاهلية » . [رواه ابن ماجه والنسائي ومسلم] (٢)

وفي رواية لمسلم : « **من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية . ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة** « **الأمر الأعمى لا يستبين وجهه** » ، **يغضب لعَصَبَةٍ أو يدعو لعَصَبَةٍ أَو ينصر عَصَبة ، فَقُتِل فقتلةٌ جاهلية . ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها ، ولا يتحاشى مؤمنها ، ولا يفي لذي عهدٍ عهده ، فليس مني ولست منه** » (٣) .

من هذه الأحاديث الشريفة تتضح لنا حقيقة المرض والعلّة على صورته الواقعية . وكذلك فإن الأحاديث الشريفة تشير إلى جوهر العلاج الذي يرسمه منهاج الله بتكامله وتناسقه وترابطه .

إنها مسئولية الدعوة الإسلامية ، ومسئولية الدعاة والمربين ، ومسئولية الآباء والأُمهات ، ومسؤولية البيت الذي تقوم فيه التربية والبناء في أهم مراحلها. ومسئولية كل مسلم أَن ينهض لعلاج هذا الداء القاتل ، الداء المستشري في حياة الإِنسانية .

إن دعوى الجاهلية هذه : يا آل فلان ويا آل فلان ، هي وأمثالها من دعوات الإقليمية والقومية تمثل انحراف عاطفة القربى ورابطة البلد عن خطها الإِيمانيّ

(١) سنن أبي داود :٣٥/ ١٢١/ ٥١١٩ . ابن ماجه أبواب الفتن (٣١) باب العصبية (٧) حديث (٣٩٩٧) .

(٢) ابن ماجه : ٣١/ ٧/ ٣٩٩٦ . النسائي : ٢٧/ ٢٨/ ٤١١٥ .

(٣) مسلم : ٣٣/ ١٣/ ١٨٤٨ .

ونهجها الرباني ، لتصبح عاطفة ودعوى جاهلية ، تفسد في الناس وتفرق ، بدلاً من أن تجمع وتصلح . إنها العصبية التي عرَّفها لنا وحذَّرنا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « **دعوها فإنها منتنة** » ، وقال في خطبة الوداع : « **ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع** » .

وفي واقعنا اليوم ، واقع المسلمين في الأرض ، استشرى هذا المرض على صورة خطيرة مدمّرة . فأصبح المسلم الذي يصلي ويصوم ويحجّ يجد اعتزازه في نفسه وعاطفته وفكره لأرضه أولاً قبل دينه وعقيدته . أصبحنا نجد هذه الدعوى الجاهلية تمضي في واقع المسلمين تحت راية الإسلام وشعار الإيمان . لقد أصبح الواقع المنحرف الذي يعيشه المسلمون هو الذي يصوغ روابط الناس وعلاقاتهم ، ولم يعد الإيمان والتوحيد ، ولم تعد آيات الله وأحاديث رسوله ﷺ ، لم يعد هذا كله هو الذي يصوغ الروابط بين الناس .

إن الودّ بين الأَهل والأَرحام وهم ملتزمون بدين الله أمر مشروع حتى يقوى المسلم على الوفاء بأمانة صلة الرحم . وإن حبّ الوطن ، حبّ المؤمن لداره وأرضه وبلده ، هو من فطرة المؤمن وطبعه . ولكنّ هذا الحب يصوغه الإيمان والتوحيد، حتى لا يتحول إلى عصبية جاهليّة تجعل ولاء المسلم الأول لأهله وعشيرته أو أَرضه ووطنه ، ولاءً أعلى من ولائه لله ورسوله ، وتجعل أُخوة الأرض والوطن أعلى من أخوة الإيمان ، وتصبح الأرض هي محور الأحلاف والصلات ، والتكتلات والتجمعات ، ويصبح المؤمنون بذلك على غير ما أمر الله ورسوله به . يصبحون أشتاتاً وأحزاباً ، وفرقاً وشيعاً ، يحارب بعضهم بعضاً ، ولا يصبحون أُمة واحدة من دون الناس كما أمر الإسلام ، وتُصبح الحوافز بذلك حوافز جاهلية ، حوافز أرض ودنيا ، حوافز مصالح وعواطف منحرفة ، ولا تكون حوافز إيمانيّة جلية تشدّ المؤمن ليسعى على صراط مستقيم ، هدفه الجنة ورضاء الله ، ليسعى وهو يتذكّر ويعي مع

كل خطوة الآيات والأحاديث التي ترسم له دربه ، وتصوغ له صلاته وروابطَه ، حتى تأخذ كلُّ صلة صورتها الإِيمانية ، وحتى تُؤدّي هذه الرابطة المهمّة التي شرعها الله ، وعلى الصورة التي أمر بها ، وفي الحدود التي أقامها ، دون تجاوز وطغيان ، أو تقصير وظلم .

لا يتسنَّى للمؤمن أن يفي بهذا الأَمر ، أو أَن يدعي روابطه على نحو إيماني يَعْبُد بها الله سبحانه وتعالى إلا إذا صدق الإيمان وصفا التوحيد في قلبه ، وإلاّ إذا ملأَ العلمُ الحقُّ قلبه بالآيات والأحاديث ، حتى يعرف من منهاج الله حدود كلِّ رابطة، لا من أهوائه المتفلِّتة وعواطفه الجاهلة، ومصالحه التي يُخفيها تحت الشعارات والرايات والزخارف ، بغير هذا العلم، وبغير التوعية والتدريب المتواصل الذي كانت توفّره مدرسة النبوّة ، وبغير الرعاية والمتابعة والإشراف ، والإدارة الحازمة الواعية القوّية ، لا يستطيع المسلم أَن يلتزم الروابط الإِيمانية حقَّ الالتزام .

عند ضعف الإيمان وغياب العلم بمنهاج الله ، وغياب التدريب والرعاية والإعداد ، تخضع الروابط عندئذ لقوى العادات والأعراف ، والعاطفة والنزوات، وضغوط الجهل والأَهـواء ، فتنحرف الروابط من خلال التصوّر والممارسة إلى أَشكال جاهلية ، حتى تألفها النفوس ، ثم ترضى بها وتخضع لها ، ثم تراها أَنها هي الحق فتدعو لها ، ثم تقاتل دونها .

إن الحدود التي أقامها أَعداء الله لتمزيق هذه الأمة ، أَلفها الناس ثمَّ رضوا بها ، ثمَّ أَخذوا يقيمون الأَعياد والأَفراح لها ، ثمّ أَخذوا يدافعون عنها ويحمونها، ويتمسّكون بها تحت شعارات الوحدة وزخارفها ، بدلاً من مقاومتها والسعي الحثيث لإلغائها . وأَصبح هذا الواقع المخالف لنصوص منهاج الله هو الذي يصوغ الروابط والعلاقات على مدى غير قصير من الزمن ، ولكنّه قصير بالنسبة لحياة أُمة! ثم أَصبح يصوغ السياسة والمواقف ، والاقتصاد والمصالح ، حتى امتدت المأساة

وزاد الجرح عُمقاً في جسد الأُمة .

لقد أصبح من السهل أَن يُرفَع شعار الإِسلام ورايته ، وفي الوقت نفسه يمضي الجهد والفكر والعطاء بروح قومية أَو إِقليمية ترسم الدرب والنهج والأَهداف ، وتصوغ النيّة والعلاقات تحت شعار الإِسلام ، إذا جاء الاقتصاد أَصبح الناس اشتراكيين ، وإذا جاءت السياسة أصبح الناس « ميكيافيليين » ، وإذا جاء الأدب فالناس حداثيون ، وإذا عرضت المصالح فهم إِقليميون أَو قوميون ، ولم يأخذوا من الإِسلام إلا راية يتخفّى الناس في ظلالها ، وهم ماضون على نهج غير إِيماني .

ويزداد الأَمر سوءاً حين تصبح التجمعات إقليمية أو قومية في بنيانها ونهجها وأَهدافها ، ثم يُظَلَّل هذا كله براية إِسلامية أَو تلاوة قرآنية ، أو لباس وزينة وشعار . وفي قلب الفكر وروح النهج ولاء قوميٌّ أَعلى أَو إِقليميٌّ أكبر ، هو الذي يرسم الدرب ويحدِّد النهجَ ، ويقيم العلاقات ويبني الأَهداف . وقد تتفلّت من بين الزخارف والزينة ، والطلاء والأَصباغ ، تعبيرات مناقضة لزخارف الراية والشعار ، تكشفُ حقيقة الفكر وروح النهج واتجاه المسيرة . ولكن هذه التعبيرات المتفلّتة تُطوَى في أَمواج العاطفة والحماسة ، حتى لا يكاد يلتفت لخطورتها إِلا القليل الذي يغيب صوته .

ويزداد الأَمر سوءاً حين تصبح الزخارف والزينة والشعارات تُرضي الناس فَيُقبلون عليها على أنها هي « الجوهر » الحقّ ، دون أَن يسألوا عن حقيقة هذا « الزخرف » ، وما فيه من خلل واضطراب وتصادم مع النهج الإيماني . وتصبح البطولات القومية بعد ذلك بطولات إيمانية تمنح لقب الشهيد مثلاً لكل قوميٍّ صرع في الميدان ولو كان غير مسلم أو ملحداً أو ضالاً . ومن خلال ذلك تلتقي المناهج غير الإِيمانية مع الشعارات والزخارف في تحالفات وولاءات . ثم يبحث الجميع عن مسوّغات لذلك في تأويل للآيات والأَحاديث ، تأويل أَصبحت النفوس مستعدة

لقبوله ، والعقول جاهزة للدفاع عنه .

إن الأمر يبلغ غاية السوء وأَشد الخطر حين يصبح الرأي العام المنتسب للإسلام يقبل هذا التأويل ، وهذا الواقع ، ويمضي معه ليكون حامياً له وقوة له ، بعد أَن سكت عنه أَولاً ثمَّ استسلم له ورضي به واعتاده وأَلفه ! ثم يدعو إليه ويدافع عنه ويقاتل دونه .

ثمَّ لا يستيقظ أَحد إلاّ عند نزول البلاء بعد البلاء ، والفتنة بعد الفتنة ، والدمار بعد الدمار ، واللجوء بعد اللجوء ، والمجازر بعد المجازر ، ثم تجد من يسأل : لماذا حلّ بنا عقاب الله ؟!

(.. **قل هو من عند أنفسكم** ..) ، هذا هو ما كسبت أَيديكم ، وهذا هو ما صنعتموه أَنتم بأَيديكم وأَنفسكم ، فالله حق يقضي بالحق ، لا يظلم شيئاً ، ولا يظلم أَحدا ! .

إنها مسؤولية كل مسلم أَن يبذل جهده ليعالج هذا المرض في نفسه أَولاً ثمَّ في أهله وعشيرته ثم في قومه وأُمته .

وإن أَول العلاج هو تصحيح التصوّر الإيماني والتّوحيد ، حتى يصدق الولاء الأول لله ، وحتى يصدق العهد الأول مع الله ، وحتى يكون الحب الأَكبر لله ولرسوله حقيقةً لا مجرد شعار يطويه حب الأهل والعشيرة ، وحب المصالح والأهواء . إنه عمل هام ضروري لاغناء عنه ، حتى يستقيم الإيمان والتوحيد على النهج الربّاني في جميع تصوّراته وممارساته .

إنها القضية الأُولى التي تحتاج إلى رعاية وإعداد ، وتدريب وبناء . وإن من أَهم الوسائل إلى ذلك مصاحبة منهاج الله مصاحبة عمر وحياة ، مصاحبة منهجية، في ظل رعاية حانية وإشراف وتدريب ، حتى تستقيم النفوس التي يكتب الله لها الهداية برحمته وفضله . ولا شيء يصنع في النفوس مثل منهاج الله إذا آمنت القلوب

ووعت وتدبّرت .

إنها قضية هامة ليتبرّأ المسلم من كل الروابط الجاهلية ، والعواطف الجاهلية ، والأَفكار الجاهلية والممارسات الجاهلية ، فلا تخدعه الزخارف والزينة ، والشعارات والرايات ، ويظل يسأل عن الجوهر حتى يتأكد ويطمئن ، ويظل يسأل عن النهج وتفصيلاته ، ومدى ارتباط النهج بالأهداف ، وكيف يوصل النهج إلى الأهداف، ومدى ارتباط هذا كله بمنهاج الله ، حتى لا يُكْتَشَفَ بعد حين أن الأهداف في ناحية، والمسيرة في ناحية أخرى ، ولا يكتشف هذه الحقيقة إلا مع وقوع البلاء والعقاب من الله .

إن علاج أمراضنا وعللنا لا يمكن أَن يتمّ بالشعارات المتنافسة المتصارعة . ولكنه يتمّ بالنهج المدروس ، والخُطة الواعية ، والعمل الدائب والبذل الصادق ليل نهار ، عسى أَن يكتب الله لنا النجاة في الدنيا والآخرة .

العصبيات الجاهلية وما يبنى عليها من روابط وصلات مرض قاتل مدمِّر في واقعنا اليوم . وإِنها مسؤولية كل مسلم أَن ينهض لعلاج هذا المرض القاتل في الأُمة . إنها مسؤولية البيت والمعهد والدعاة والعلماء وأُولي الأمر .

وإن هذا المرض القاتل لا ينحصر شرّه في القطر الواحد أَو الأُمة المسلمة وحدها . كلاّ ! إنه خطر يهدد حياة الإنسان والبشرية كلها على الأرض . إنّه الداء الذي يثير الأَحقاد الباطلة بين الشعوب ، حتى يصبح كلُّ شعب لا يرى الحقَّ إلا في مصالحه الظالمة وأطماعه العدوانية ، فتثور الحروب وتلتهب الأرض بنارها . ويفقد الناس الأمن والعدالة والحرّية الكريمة . وتضطرب الموازين بأيدي الناس حتى يظلم بعضهم بعضاً . وينهب بعضهم بعضاً ، وتصبح تعبيرات هيئة الأُمم المتحدة ومؤسساتها ، ومجلس الأَمن وقراراته ، والنظام العالمي الجديد وزينته ، وحقوق الإِنسان ولجانها ، وكل ما شابه ذلك ، كل هذا يصبح أَداة استغلال فاسد لتنفيذ

جريمة هنا وجريمة هناك ، يكون من أول ضحاياها دعاة العصبية الجاهلية أَنفسهم، أو الذين رضُوا وسكتوا عن باطلها ، في أَجواء الهوان والضعف ، أَو أَجواء العاطفة غير الواعية ، العاطفة التي تشدّها الزخارف الكاذبة فتنسى جوهر الحق وعدالة الميزان . وتنسى أَمر الله وشرعه ومنهاجه !

ونستطيع أَن نوجز هذه العصبيات الجاهلية أو نعدّد بعض مذاهبها ونماذجها في واقع المسلمين اليوم ، وفي واقع البشرية كذلك ، على النحو التالي :

- العصبية للذات وما تحمَل من كبر وغرور وإعجاب بالنفس .
- العصبية للأُسرة والزوجة والأَبناء ، وللأَرحام والعائلة ، وإيثارهم بالباطل وتأييدهم على الظلم .
- العصبية للأصدقاء والافتئات على حقوق الآخرين ظلماً وعدواناً .
- العصبية للحيّ أَو المدينة حتى يكاد القطر الواحد يتفتّت نتيجة لذلك .
- العصبية للجماعة أَو الحزب أو أَي تجمّع حتى يصبح اسم الجماعة أَو الحزب أو التكتل ينال الولاء الأَعلى والنصرة الأَشد . فتتطاحن الجماعات وتُسدّ أَبواب اللقاء .
- العصبية للقطر أَو الإِقليم حتى تصبح الوطنية الإقليمية هي التي ترسم الدرب والنهج ، والعلاقات والأَهداف ، وهي التي يدور حولها الأَدب والفكر والعاطفة والولاء . وتتمزّق الأُمة وتتناقض مصالحها ، فتتصادم وتفترق ، أَو تتعاون وتلتقي ، على أساس مصالح متبدِّلة ومطامع لا تخضع لميزان عادل .
- العصبية القومية التي ترى نفسها أَعزَّ من غيرها بجنسها ودمها . وتتفاضل الشعوب عندئذ والأجناس والدماء في دعوى جاهلية باطلة يحرّمها الإِسلام، فتُسدُّ بذلك أَبواب تلاقي الشعوب والأجناس على الخير والحق

في منهاج ربّاني كامل . ولا يعود التنافس على خير ، ولكن على شر وتحاسد وفتنة ومظالم . وتسود شريعة الوحوش تحت رايات الحضارة الكاذبة ، وتلتهب الأرض فتنة وحروباً ودماراً .

وتأخذ هذه العصبيات في واقع المسلمين وواقع البشرية عامة صوراً وأشكالاً متعددة . ولكنها تظل في جميع صورها تحمل المظالم والفتنة والفساد في حياة الناس ! ومسؤوليتنا أن نكشف هذه الصور المتعددة في كل واقع حتى تتمَّ معالجتها .

إنها إذن مهمة المسلم ومهمة الأُمة المسلمة كلها أن تحارب هذه الفتنة في الأرض ، وتدفع عن الناس شرَّها وفتنتها . ومن هنا تتضح لنا واحدة من أَهم مسؤوليات الدعوة الإسلامية والأمة المسلمة على مدار العصور ، حتى توفّر للبشرية أَجواء الأمن الحقيقي والعدالة الصادقة والسلام العزيز على ميزان رباني أَمين .

ومن هنا ندرك البعد الإنساني للدعوة الإسلامية ودورها الهام في بناء فكر الإنسان وعاطفته وولائه ، وتوجيه جهده وعطائه .

إن تحقيق هذه المهمة العظيمة ، أو معالجة هذا الداء الخطير لا يتمّ بكلمة نلقيها ثم نمضي . إنها تتمّ من خلال مناهج تفصيلية تطبيقية تحمل العلم والنهج والتدريب ، وتحمل معها الرعاية الحانية والإشراف ، والتعهّد والمراقبة ، والتوجه الدائب والنصح الأمين .

وإن « المنهاج الفردي » (١) بنظريته وصورته التطبيقية العملية ، و« منهج لقاء المؤمنين » (٢) كذلك بنظريته وصورته التطبيقية العملية ، رَاعيًا هذه الناحية لِيُوفِّرا أوسع الأَساليب النظرية والتطبيقية لمعالجة هذه القضية وغيرها . وكذلك ميزان المؤمن الذي يقوم أولاً على صدق الإيمان والتوحيد وصدق الولاء والوفاء بالعهد كما أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « وأوفوا بعهد الله إذّا عاهدتم .. »! وكذلك الخطة اليومية

---

(١) يراجع كتاب : « منهج المؤمن بين العلم والتطبيق » لدراسة نظرية « المنهاج الفردي » .
(٢) يراجع كتاب : « منهج لقاء المؤمنين » لدراسة نظرية هذا اللقاء .

والإسبوعية والسنوية ترتبط مع ما ذكرناه ، لتوفر كلها العمل المنهجي المتكامل .

ولكن يظل للجهد البشريّ المبذول ، ومدى التزامه الخطة والنهج التزاماً كاملاً وأميناً ، ومدى تفاعله ووعيه لذلك ، ومدى صدقه وبذله وعطائه ، سيظل لهذا كله دور رئيس في نجاح الخطة وبلوغ الهدف . وقبل هذا كله تكون هداية الله هي العامل الأَول . فالأَمر كله لله . ولكننا نبذل الجهد ليستوعب وسعنا وطاقتنا عبادة لله واستجابة لأَمره وطاعة له .

ومن خلال « **المنهاج الفردي** » و « **منهج اللقاء** » بصوره المتعددة يمكن معالجة سائر العيوب والأخطاء والعلل والأَمراض ، على قدر ما يصدق الداعية بالالتزام بالنهج ، وبِوَعْيِهِ للنهج ، وعلى قدر وفائه بالأمانة في عنقه ، وما يبذل من رعاية ومتابعة ، وتدريب وإِعداد ، ونصح لله ولرسوله ولكتابه ولأَئمة المسلمين وعامَّتهم .

ومن المناسب أن نذكِّر أَنفسنا ، وأَن نعيد ونكرر ، أَنَّ الإسلام يحترم الروابط والعلاقات التي شرعها الله بين الناس على أَن يصوغ الإسلام هذه الروابط كلها لتكون « روابط إِيمانية » . وعلى رأس هذه الروابط الإيمانية أُخوة الإِيمان ، أُخوة الإِسلام ، الأُخوة في الله كما صاغها منهاج الله .

ولكنّ هذه الأُخوة في الله يتعذَّر تطبيقها في واقع الناس إِلا إِذا كان الولاء الأَول والأَكبر ، الولاء الواعي الصادق ، هو لله . ومن هذا الولاء ينشأ كل ولاء آخر ، ومنه تنشأ الموالاة بين المؤمنين ، ومنه ينشأ الوفاء بالعهد الحق . فإذا اضطرب الولاء لله اضطربت الموالاة بين المؤمنين وانحرفت لتصبح موالاة تجمعات وأحزاب تفرّق المؤمنين ولا تجمعهم ، وتصبح صورة من صور العصبيات الجاهلية ، ويتعذّر عندئذ الوفاء بالعهد الرباني ويضطرب السمع والطاعة وتختلط الأمور .

والموالاة بين المؤمنين ليست قضية مودة وعاطفة فحسب ، ولكنها مسؤولية والتزام ، وحقوق وواجبات فصّلها منهاج الله ، وهي عهد مع الله من المؤمنين جميعاً

ليكونوا أمّةً واحدة .

ولعله يجدر بنا أن نورد بعض النصوص من منهاج الله لتذكرنا بحقيقة الروابط الإيمانية :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴾ [الحجرات : ١٠]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ [الحجرات : ١٣]

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥]

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١]

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦]

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة** » [رواه مسلم][1]

وعن أَبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً** » [رواه مسلم][2]

(١) صحيح مسلم : كتاب (٥) ، باب (١٥) ، حديث (٢٥٨٠) .
(٢) صحيح مسلم :٤٥/١٧/ ٢٥٨٥ .

وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » [رواه مسلم] (1)

وآيات وأحاديث أخرى !

وحسن ظن المسلم وعدم الغيبة والنميمة والتناصح بين المؤمنين كل ذلك يدفع العصبية الجاهلية عن المسلمين :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الحجرات :12]

فهذا الربيع بن سليمان أحد تلامذة الإمام الشافعي يروي عنه فيقول : دخلت على الشافعي ذات يوم وهو مريض ، فقلت له : قوى الله ضعفك . فقال الشافعي : لو قوى ضعفي لقتلني . فقال الربيع : والله ما أردت إلا الخير . فقال الشافعي : أعلم أنك لم ترد إلا الخير . أي من حُسن ظن الشافعي بتلميذه .

هذه بعض ملامح الموالاة بين المؤمنين : ودٌّ وحبٌّ في الله ، حقوق وواجبات ، ولاء واحد من الجميع لله ، يحبون الحق ويتحرّونه ويخضعون له . إنها موالاة بين الأفراد ، وبين الشعوب ، تنمو معها الروابط الإيمانية مندّاة بالإيمان غنيّة بالصدق ، تمضي على نهج ربّاني ، لتؤدِّي مهمّة إيمانية في واقع الإنسان ، مهمة خير وصلاح ، فلا تنحرف إلى شر وفتنة وفساد .

لذلك ندعو الأفراد والحركات الإسلامية لتنظر في نفسها ومناهجها ووسائل تربيتها : كم طبّقت هذه القواعد الربانية ، وكم غرستها في نفوس الأجيال التي تتعهدّها ؟! كم أنقذتها من العصبيات الجاهلية و الولاءات الخاطئة وكم نشَّأتها

(1) صحيح مسلم : 45/ 172586 .

على الروابط الإيمانية كما أمر الله ورسوله ؟! [1]

إنها مسؤولية كبيرة سيحاسِب الله عليها عباده يوم القيامة ، ويمضي عليهم قدره في الحياة الدنيا والآخرة . فلينهض الجميع إلى هذه المسؤولية ، فبها نرسي القاعدة المتينة للقاء المؤمنين ، ولقاء العاملين الصادقين ، وبناء الأُمة المسلمة الواحدة .

ومن أخطر القضايا التي تثير العصبيات الجاهلية في الفرد والجماعة الكبر والغرور والإعجاب بالذات . ومما يؤثر في تهذيب ذلك معرفة المسلم لحدوده ووفاؤه بمسؤولياته وعدم تجاوز تلك الحدود والمسؤوليات ، حتى لا تصطدم الحدود والمسؤوليات ، فتضيع الجهود وتُشْغل بالفتنة بعد الفتنة ، وكلٌّ يريد أن يبرز نفسه ، أو يبرز قومه أو وطنه على غير حق وعلى غير ميزان عادل .

نعود ونؤكد أن فهم « **ميزان المؤمن** » فهماً سليماً عن إيمان وعلم وصدق التزام، يعين كثيراً من الحد من هجمة العصبيات الجاهلية والكبر والغرور ، ويساعد على ذلك « **المنهاج الفردي** » و « **منهج لقاء المؤمنين** » .

إلا أن هذه كلها يسقط دورها إذا اختل الإيمان والتوحيد وضعف العلم ، وتجاوز المسلم حدوده ، وغلب على نفسه غروره وكبره وإعجابه بنفسه ، وضعف الوفاء بالمسؤولية وحدودها ، والعهد وأسسه .

ولا بد أَن نؤكد مع ختام هذه الكلمة أَنه لا يمكن فصل هذه القضية عن سائر قضايا منهاج الله ، ولا هذا المرض عن سائر العلل في الأُمة . فالنهج والخطة والجهْد والبذل يجب أَن يتناول كل العلل والأمراض عسى الله أَن يَمُنَّ علينا بنصر من عنده ، إِنه هو العزيز الحكيم .. والحمد لله رب العالمين .

ومن أخطر ما يثير العصبيات الجاهلية ويغذيها في الأرض ، النظام الرأسمالي

---

(١) يُراجَع كتاب : « دور المنهاج الرباني » (ص: ١٤٤ـ١٥٥) من أجل تفصيلات أوسع عن الروابط الإيمانية ، وكذلك القواعد الأساسية في المنهاج الفردي ، وكتاب « لقاء المؤمنين » الجزء الأول (ص:١٩ـ٢٨) للمؤلف .

المبني على العلمانية والجشع والعدوان ، والكبر في الأرض ، وامتداد الجريمة .

ولقد ساد النظام الرأسمالي الأرض كلها ، وامتد فساده وعصبياته الجاهلية حتى قلب العالم الإسلامي .

إن المخرج الوحيد هو الدعوة إلى الله ورسوله وتبليغ رسالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ إلى الناس كافة تبليغاً منهجيّاً ، وتعهدهم عليها تعهداً منهجياً حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض . دعوة تكون امتداداً صادقاً لدعوة محمد ﷺ ومدرسته ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتُب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم. اللهم اجعل كلمتنا هذه نقيّة خالصة لوجهك الكريم ، نصرة لك ولدينك ولدعوتك . اللهم أصلح لنا نفوسنا ونيّاتنا . اللهم أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . اللهم إنا نسألك السداد والرشاد ، والعزيمة والقوة ، والثبات على الحق والمضيّ على الدرب !

والحمد لله رب العالمين

(٧)
النية
بين إخفاء العمل وإظهاره
مع الحديث الشريف
(إنما الأعمال بالنيات ...)

لقد جاء حديث ﷺ عن النيّة ليبيّن للمسلم أهمية النية في عمله كله فيما يخفيه وفيما يظهره . فحديث رسول الله ﷺ يرويه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نَوَى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسُوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لِدُنْيا يُصيبُها أو امرأة ينكِحُها فهجرته إلى ما هَاجَرَ إليه** » [متفق عليه]

فمن الخير أن نذكر أنفسنا بين حينٍ وآخر ببعض قواعد مدرسة لقاء المؤمنين، حتى يظلَّ أبناء المدرسة على وعي كامل دقيق بنهج هذه المدرسة ومنهاجها ونظريتها العامة ، ونظامها الإداري . وارتباطها الوثيق بالكتاب والسنة واللغة العربية .

والقضية الأولى التي يجب أن نؤكدها هي أن لأبناء المدرسة الحرية الكاملة في إبداء رأيهم في هذا الموضوع أو ذاك ، خاضعين جميعاً إلى نهج المدرسة الإيماني وقواعد النظام الإداري الإيماني ، ومنها :

١. أن يعطي رأيه عن علم ودراسة وخبرة دون أن يعتبر أن رأيه هو الحق.
٢. أن يطمئن إلى أنه يُعطي رأيه بنيَةٍ خالصةٍ صادقةٍ لله سبحانه وتعالى يرجو برأيه نصرة دين الله ونصرة نهج مدرسة لقاء المؤمنين .
٣. أن يعطي رأيه في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، والأسلوب المناسب .
٤. أن لا يطرح رأيه في منهج اللقاء في موضوع خارج عن بنود منهج

اللقاء، ولكن يرفعه مكتوباً إلى الجهة المختصة .

٥. أن يقدم رأيه مع حُجّة بيّنةٍ من الكتاب والسنة والواقع الذي يُرَدُّ إليها.

والقضية الثانية أن يكون مدركاً مؤمناً بأسس الإيمان والتوحيد في دين الله، وأهم هذه الأسس :

١. أن يكون مؤمناً بأسماء الله الحسنى كلها وصفاته كُلِها مجتمعة في قلبه وتصوره ، مؤمناً بالقدر كله خيره وشره ، وأن كل ما في الكون يمضي بقضاء لله نافذ وقدر غالب وحكمة بالغة ، ندرك بعضها ولا ندركها كلها إلا بما يعلمنا الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ ، كما جاءا باللغة العربية، وأن جميع خصائص الإيمان والتوحيد مفصّلة في الكتاب والسنة أدقّ تفصيل .

٢. أن يكون الولاء الأول لله وحده ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحب الأكبر لله ورسوله ، وأنه متجرد من العصبيات الجاهلية كلها ، وأن يؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن هذه الخصائص مجتمعة تبني وتُقيم أخوة الإيمان بين المؤمنين رابطة وميثاقاً وعهداً ، وبغيرها تنهار أخوة الإيمان، كما هي منهارة في واقعنا اليوم ، وأن العلاقات بين المسلم وغيره تقوم على أساس من وعي لمنهاج الله قرآناً وسنة ولغة عربية ، ليردَ جميع أموره في حياته إليها ، وعلى أساس تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أنزلت على محمد ﷺ تبليغاً منهجيّاً وتعهّدهم عليها تعهُّداً منهجياً حتى تكون كلمة الله هي العليا .

والقضية الثالثة أن نهج مدرسة لقاء المؤمنين يشمل : النظرية العامة ، والمناهج التطبيقية ، ونماذجها المقررة ، والدراسات المفصّلة التي تبيِّن فيها تُبيِّن ردَّ الواقع كله إلى منهاج الله والتي تفصّل كل بنود النهج ، وكذلك النظام الإداري ، والأهداف

الربانية الثابتة والأهداف المرحلية ، وأن هذا كله نابع من أربعة مصادر:

١. أسس الإيمان والتوحيد .
٢. منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية .
٣. مدرسة النبوة الخاتمة مدرسة محمد ﷺ .
٤. وعي الواقع من خلال ردّه إلى منهاج الله ردّاً أميناً عن صدق إيمان وتوحيدٍ وعلم صادقٍ بمنهاج الله ، وأنه يبين الصراط المستقيم كما فصّله منهاج الله ، وأن له أهدافاً ربّانية محددة جامعة لأهداف الإسلام .

والقضية الرابعة أن النظام الإداري جزءٌ لا ينفصل عن النهج كله ، لأنه يمثل الحماية لممارسة نهج مدرسة لقاء المؤمنين في واقع الحياة . وأن هذا النظام الإداري قائم على وعي الواقع من خلال منهاج الله وحاجاته ومتطلباته ، ونابع في الوقت نفسه من منهاج الله ، مما يوفر الخبرة والمران في وضع قواعد النظام الإداري الإيماني .

وربما يدور في نفس بعض الإخوة تساؤلات حول بعض قضايا النظام الإداري مما يستوجب توضيح بعض الأمور ، على أساس القضية الأولى التي وردت في هذه الكلمة .

لا بد أن يأخذ المسلم الحرّية في إبداء رأيه وما يجول في خاطره ، وما قد يُوحي به ضغوط الواقع وأفكاره المضطربة ، والحماية من ذلك هي الشروط الإيمانية التي عُرضت في القضية الأولى .

ومما يتساءَل عنه بعض الإخوة نظام المنهاج الفردي ، وبيان الإشراف ، ومنهج الداعية الدوري ، وميزان المؤمن ، فيقول المسلم الأفضل أن يكون عمل المسلم مخفيّاً لا يُكشفُ حتى يكون العمل خالصاً لله لا مراءاةَ فيه ولا طلب للدنيا ، فتكون النيّة خالصة لله .

ومن مراجعة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ نرى أن الأمر في دين الله يختلف عن هذه النظرة أو الرأي . ونبيّن ذلك في نقاط :

١. فالنيّة مسؤوليتك أيها المسلم قد تخفي العمل وتكون النية غير صادقة، وقد تعلنه وتكون النية صادقة لله ، فإعلان العمل وبيانه ليس شرطاً لإفساد النيّة . وهذا قوله سبحانه وتعالى عن الصدقة ، وهي أكثر ما يُحَبُّ إخفاؤها ، بيّن الله جواز أن تُبْدَى دون أن تفسد النية :

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [البقرة :٢٧١]

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[البقرة :٢٧٤]

أما الذي يُكره ويُبْطل الأجر فهو المنّ والأذى بالصدقات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة :٢٦٤]

هذا بالنسبة للصدقة ، فأما الصلاة فالفرائض يجب أن تكون في المسجد علانية يؤديها المسلمون جماعة . والأفضل للنافلة وقيام الليل أن يكون في البيت ويمكن أن يخفيها أو يؤديها علانية .

وهذا الحج يُؤدَّى علانية ، وكلُّ مسلم مسؤول عن نيته أيريد الدنيا

بحجّه أم يريد الآخرة ؟! والعلانية لا تفسد النيّة ، إنما الذي يفسدها أو يصلحها الإنسان نفسه :

وكذلك الجهاد في سبيل الله عمل يُعلن ولا يُكتم ، ويكون المسلم مسؤولاً عن نيته .

والشهادتان يجب إعلانهما ولا يصلح كتمانهما لأنهما باب دخول الإسلام وشرطه .

٢. وإذا نظرنا في سيرة الرسول ﷺ فنجد أن أعماله كانت معروفة ليكون قدوة للناس كافة . وكذلك أعمال الصحابة رضي الله عنهم ليكونوا قدوة كذلك .

٣. إخلاص النية لله شرط رئيس في كل عمل يقوم به المسلم . فهنالك أعمال كثيرة لا يمكن إخفاؤها ولا بد من إخلاص النية بها : مثل التجارة وأمثالها ، والموظف في وظيفته ، والرجل في بيته ، والعالم في تعليمه الناس ، كلّ ذلك يجب فيه إخلاص النيّة مع علانيته .

٤. ويمكن للمسلم أن يتتبع النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة مما يبيّن وجوب إخلاص النيّة في عمل المسلم حتى لو كان معلناً . فالمسلم إذن مسؤول عن نيّته وإخفاء العمل ليس شرطاً لإخلاص النية والتبرؤ من المراءاة التي حرمها الله ، ولكن يجب التبرّؤ من المنّ والأذى .

٥. أن أهل الفجور يعلنون أعمالهم بكل وسائل الإعلان والإعلام ، ويُزيِّنون ذلك للناس ، فلو انطوى المسلمون على أنفسهم ، لامْتَلأت الساحة بالفتنة والفساد ، ما وجد الناس قدوة الخير أو كلمة الصلاح.

فلا بد أن ينزل المؤمنون ميدان الحياة نزولاً علنيّاً ومنهجيّاً يعلنون فيه الحق والخير ويجاهدون ويصبرون ، ويجاهدون في أنفسهم حتى تظلّ

نيتهم خالصة لله .

٦. إن الرسول ﷺ كان يتفقَد أحوال المسلمين بجميع الوسائل الممكنة آنذاك . فكان يسأل أحياناً : من تصدّق اليوم ؟ فيجيبه أبو بكر رضي الله عنه أنا يا رسول الله ﷺ ، دون أن يفسد هذا الإعلان نيته . وكذلك يسأل رسول الله ﷺ : من زار مريضاً ؟ وهكذا دون أن يفسد الإعلان النيّة . فهو إشراف وتربية وتوجيه أو هو إدارة ونظام ، أو تذكير بمحاسبة النفس .

٧. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسل العيون من الصحابة ليشرفوا على عمل الولاة لمحاسبتهم عن مدى الوفاء بواجباتهم ، دون أن يفسد هذا العمل نيّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا نيّة الولاة . فالإشراف والمراقبة أساس العمل الإداري وخاصة في الإسلام حتى لا تكون الأمور متفلتة ، وحتى ينضبط العمل كله في صورة منهجية .

٨. والإدارة بعامة لدى المسلمين وغيرهم تتطلب الإشراف والمراقبة والتوجيه والتنسيق ، وتوفير سبل التعاون ، ودراسة القدرات والمواهب ، وإنزال الناس منازلهم كما أمر رسول الله ﷺ . وقد كان ذلك في سيرة الرسول ﷺ للتربية والإشراف والتوجيه ، ومعرفة مواطن الخلل لمعالجتها ، ومازالت هذه القاعدة أساسية في النظم الإدارية الحديثة يستفيد منها المجرمون في الأرض ، ويتخلى عنها المسلمون ، لتتفلّت أمورهم كما هي متفلتة اليوم ، وليهبط مستوى العاملين الذين يعملون دون إشراف ولا مراقبة ولا توجيه ، حتى ماتت النصيحة بين المسلمين وكثرت الأخطاء والعيوب ، بالرغم من وضوح الآيات والأحاديث ، مثل : « **الدين النصيحة** » . وهذا واقع المسلمين اليوم في هوانه لا

توجيه ولا مراقبة ولا نصيحة ! وفي كثير من الأحيان تُقبل الأخطاء والعيوب أو يُستَرُ عليها .

٩. وربما يرى بعض الأبناء أنهم أكبر من أن يلتزموا ببيان الإشراف والمنهاج الفردي لحصولهم على درجات علمية عالية . فنقول لهؤلاء إنهم أحوج الناس إلى هذا النظام لما فيهم من خلل وضعف أبرزه الكبر الذي في نفوسهم ، وأمور أخرى لا يشعرون بها .

١٠. من أخطر ما يصيب الإنسان من حالات المرض حين يكون مريضاً أو مخطئاً ولا يشعر بذلك ، ولا يعلم عن ضعفه ومرضه . فإذا ضعفت النصيحة والإشراف والمراقبة والتوجيه ، استمر المسلم لا يشعر بما يحمل من خلل أو مرض ، فتزداد الأمور سوءاً وينكشف الوهن والخلل في واقع الأمة كلها بعد أن ينتشر الخلل من رجل إلى رجل ، ومن موقع إلى موقع ، فتصاب الأمة بالهزائم وهي في هوان وغيبوبة .

١١. كثير منا يعملون في الشركات حيث يكون هنالك إشراف ومراقبة وتوجيه ، ولا يعترض عليه المسلم ، ويكون عمل المسلم علانية ، فلماذا قبل ذلك هناك ، ويعترض في الدعوة والمدرسة .

١٢. النظام الإداري والإشراف والمراقبة ضروريٌّ لحُسن التوجيه ومعالجة الضعف والوهن والخطأ والتقصير ، ولحماية الدعوة من أمراض داخليّة ومن أعداء خارجيين يستغلون الأمراض الداخليّة ليؤذوا ويفسدوا .

١٣. عندما قال رسول الله ﷺ : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عُضوّا عليها بالنواجذ ....** » كيف يمكن الاستجابة لذلك إذا كانت هذه السنّة وأعمالها مخفيّة ، كيف تعرفها الأجيال ؟! وكيف يلتزمونها ؟!

١٤. حتى لو شعر المسلم بشيء من الرياء أول أمره ، فليُتابع المضيّ بالدراسة والتعلم عسى الله أن يهديه فيتعرف على حقائق الإسلام فتطمئن نفسه ويزول رياؤه .

١٥. لا يعتبر المسلم أن رأيه وتصوره هو الحق وأن الآخرين كلهم مخطئون ، فهنالك ميزان إيماني دقيق يمكن به معرفة الخطأ من الصواب .

١٦. نأمل من كل أخ أن يردّ خواطره إلى منهاج الله ، فيطرد ما يخالفه ، حتى يدفع عن نفسه ضغوط الواقع . وقد يكون الدافع إلى الرغبة في أن يكون العمل سرّياً إخفاء ما يعانيه المسلم من ضعف لا يحبُ أن يكشف ولا أن يعالج . حالة نفسية تعالج بالممارسة لمنهاج الله والمنهاج الفردي ومحاسبة النفس .

١٧. لا بد من معالجة أمراضنا وأخطائنا ، ومن أهم الوسائل التي شرعها الله النصيحة وبشروطها التي سبق ذكرها . وفي دراسة الواقع الشخصي ذكرنا أن يكون ذلك بين المدرس والطالب على انفراد إذا لزم الأمر .

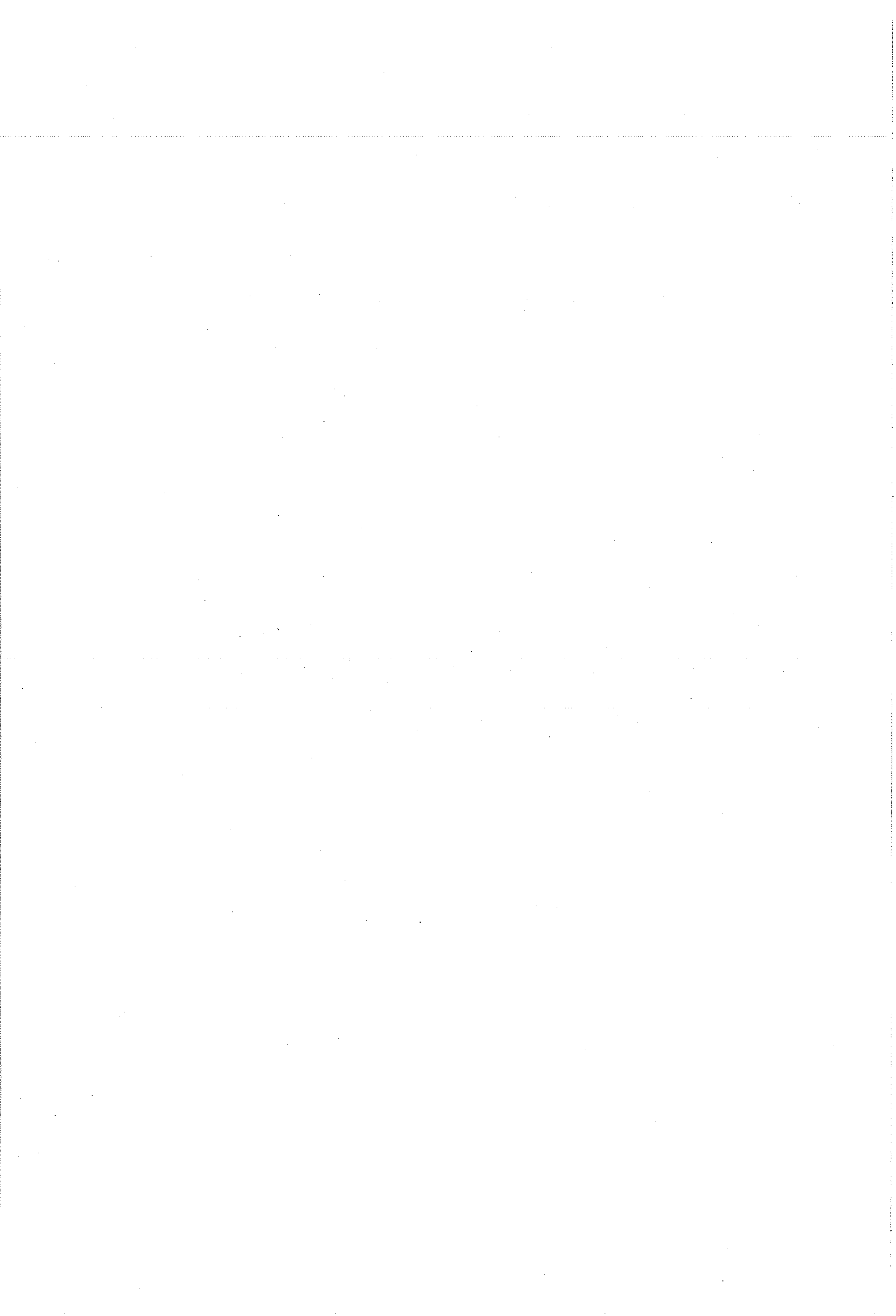
١٨. وإننا لنعجب كيف يرون أن جميع علوم الأرض من هندسة وطبّ وغيرها تُدرَّس في الجامعات تدريساً منهجيّاً مبرمجاً متشابهاً في جميع أنحاء الأرض ، يخضع له الطالب خضوعاً تاماً دون أي اعتراض ، وفي الوقت نفسه يريدون أن تكون دراسة الإسلام فوضوية غير منهجية وإذا وضع منهج بدأت الاعتراضات أو التراخي وعدم الالتزام .

١٩. إن نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن يقوم وينبع من أربعة مصادر كما ذكرت في القضية الأولى ، ونعيدها للتأكيد : « أسس الإيمان والتوحيد ، المنهاج الرباني ، مدرسة محمد ﷺ ، وعي الواقع من خلال منهاج الله » . وقد وُضع هذا النهج من خلال تلك المصادر بعد ممارسة

العمل الإسلامي ودراسة أخطائه لمدة تزيد على خمسين سنة . ونعرض هذا النهج على علماء المسلمين ودعاتهم وحركاتهم في الأرض كلها ، ونحن نسأل هل من مخالفة للإسلام ؟! فما جاءنا إلا التقدير والشكر والاحترام ، مع وجود عوامل حزبيَّة وسياسية تعطل المسيرة قليلاً . هذا النهج يمثل في نظرنا اتباع الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه، ويمثل الخضوع لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣]

٢٠. أمّا القضية الأولى في البناء والتربية فهي صدق الإيمان وصفاء التوحيد وغرسها في القلوب والنفوس فهما في الأصل مغروسان في فطرة كلِّ مخلوق . والمجتمعات الإسلامية في واقعنا اليوم وما فيها من فتن ، تدفع المسلم لينفر من الإيمان ومن الدين إلا من رحم الله ، فلا بد من مساعدة الشاب المسلم قبل أن يغرق في أمواج عاتية من الفتن دون أن يشعر .



فهرس كتاب
قبسات من الكتاب والسنة
تدبُرٌ وظلالٌ . الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة
دعوة موقع لقاء المؤمنين	٥
الإهداء	٧
الافتتاح	٩
تمهيد وتوضيح لـ«كلمات مضيئة»	١٣
كلمات مضيئة	١٥
المقدمة	٢٩
أولاً : قبسات من القرآن الكريم	٣٥
١. مع الآية الكريمة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾ .	٣٧
٢. مع الآية الكريمة : ﴿.. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ... ﴾ .	٤٥
٣. مع الآية الكريمة : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ .... ﴾ .	٥٣
٤. مع الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ... ﴾ .	٦١
٥. مع الآية الكريمة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ .	٧٥
٦. مع الآية الكريمة : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ... ﴾ .	٨١
٧. مع الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.	٩٣
٨. مع الآية الكريمة : ﴿... وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ...﴾.	١٠٣
٩. مع الآية الكريمة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ... ﴾ .	١٠٩
١٠. مع الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ...﴾.	١١٩

الموضـــوع	الصفحة
ثانياً : قبسات من الأحاديث النبوية المطهرة :	١٢٩
١. مع الحديث الشريف : (... بُني الإسلام على خمس ...) .	١٣١
٢. مع الحديث الشريف : (.. فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين ...) .	١٣٩
٣. مع الحديث الشريف : (من قُتل دون ماله فهو شهيد ...) .	١٥٥
٤. مع الحديث الشريف : (ألا أُنَبِّئُكُم بخير أعمالكم وأزكاها ...).	١٦٥
٥. مع الحديث الشريف : (لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد ...).	١٨١
٦. مع الحديث الشريف : (ثلاث من عمل الجاهلية لا يتركهن ...).	١٩١
٧. مع الحديث الشريف : (إنما الأعمال بالنيات ...) .	٢٠٧
الفهرس	٢١٧
كتب المؤلف	٢١٩

مؤلفات الدكتور/عدنان علي رضا محمد النحوي

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
أولاً: كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية:		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط١
٢	موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط٢
٣	أضواء على طريق النجاة	ط١
٤	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط٤
٥	كيف تلتقي الجماعات الإسلامية	ط١
٦	الموجز الميسَّر عن مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن	ط٢
ثانياً: كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية:		
٧	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط٦
٨	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط٥
٩	النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط٣
١٠	منهج لقاء المؤمنين	ط٢
١١	لقاء المؤمنين. أسسه وقواعده. الجزء الأول	ط٥
١٢	لقاء المؤمنين. الأهداف. الجزء الثاني	ط٤
١٣	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط٣
١٤	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال. الجزء الأول	ط٢
١٥	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال. الجزء الثاني	ط١
١٦	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال. الجزء الثالث	ط١
١٧	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط١
١٨	الإسلام أركان وبناء. تذكير ونصح	ط١
١٩	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط١
٢٠	المسؤولية الفردية في الإسلام: أسسها وتكاليفها وتميزها	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٢١	التربية في الإسلام النظرية والمنهج	ط١
٢٢	النهج الإيماني للتفكير	ط١
٢٣	عهد الله والعهد مع الله بين التفلت والالتزام	ط١
٢٤	حتى نتدبر منهاج الله	ط١
٢٥	حتى نغير ما بأنفسنا	ط١
٢٦	لؤلؤة الإيمان فريضة طلب العلم ومسئولية المسلم الذاتية (المنهاج الفردي)	ط٢
٢٧	النهج في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٢٨	الموازنة وممارستها الإيمانية	ط١
٢٩	الاختلاف بين الوفاق والشقاق	ط١
٣٠	مواجهة المشكلات والأخطاء والتقصير	ط١
٣١	مصارحة ونصيحة : مراجعات دعوية ووقفات إيمانية	ط١
٣٢	لتكون كلمة الله هي العليا	ط١
٣٣	التجديد في الفكر الإسلامي مفهومه وضوابطه وغايته	ط١
ثالثاً: كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج للدعوة والبلاغ والبيان:		
٣٤	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط٣
٣٥	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط١
٣٦	النية في الإسلام وبعدها الإنساني	ط١
٣٧	النية إشراقة في النفس وجمال	ط١
٣٨	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط٤
٣٩	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط٤
٤٠	الخشوع	ط٢
٤١	النبي العظيم والرحمة المهداة محمد ﷺ	ط١
رابعاً: كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع الإسلامي وأهم أحداثه وتعتبر الملاحم جزءاً من دراسة الواقع:		
٤٢	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٤
٤٣	الشورى لا الديمقراطية	ط٥
٤٤	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط٣
٤٥	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٤٦	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط١
٤٧	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط١
٤٨	المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط١
٤٩	المرأة بين نهجين الإسلام أو العلمانية	ط١
٥٠	على أبواب القدس	ط٣
٥١	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط٥
٥٢	فلسطين واللعبة الماكرة !	ط١
٥٣	عبد الله عزام أحداث ومواقف	ط٣
٥٤	حوار الأديان . دعوة أم تقارب أم تنازل	ط١
٥٥	الانحـراف	ط١
٥٦	كيف ضيَعَت الأمانة التي خُلقنا للوفاء بها ؟!	ط١
٥٧	حرية الرأي في الميدان	ط١
٥٨	هذا هو الصراط المستقيم فاتبعوه !	ط١
٥٩	المسلمون بين الواقع والأمل	ط١
٦٠	تمزق العمل الإسلامي بين ضجيج الشعارات واضطراب الخطوات	ط١
٦١	الربا وخطره في حياة الإنسان	ط١
٦٢	الدعوة الإسلامية بين الأحزاب والجماعات	ط١
٦٣	هوان المسلمين أمام الواقع وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات	ط١
٦٤	العولمة والإسلام	ط١
٦٥	الشريعة والحياة المعاصرة	ط١
٦٦	فقه الاستشهاد في سبيل الله	ط١
٦٧	المرأة والأسرة المسلمة والتحديات في واقعنا المعاصر	ط١
٦٨	الإسلام والحرية وحرية المعتقد	ط١
٦٩	المرأة ومساواتها بالرجل ونزولها إلى العمل السياسي	ط١
٧٠	وقفات مع كتاب المسلم مواطناً في أوروبا	ط١
٧١	الإنسان بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات الدولية	ط١
٧٢	الأمة المسلمة بين الدعوة الإسلامية والأدب	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٧٣	أين المعركة ؟! أين ساحة الجهاد ؟! ماذا يجري في فلسطين	ط١
٧٤	الأزمة الفلسطينية الداخلية وأبعادها على قضية فلسطين	ط١
٧٥	رسالة المسجد الأقصى للمسلمين نجوى وشكوى وحنين	ط١
٧٦	فلسطين وصلاح الدين	ط١
٧٧	مع مصطلح الاختلاط	ط١
خامساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (المنهج) الأدبي وترد على المذاهب الأخرى :		
٧٨	الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته	ط٤
٧٩	الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٨٠	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط١
٨١	أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٨٢	أدب الأطفال وأثره في تربيتهم العقدية الصحيحة	ط١
٨٣	التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف	ط١
٨٤	لماذا اللغة العربية ؟	ط١
٨٥	الحداثة في منظور إيماني	ط٥
٨٦	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط٢
٨٧	الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام	ط١
٨٨	الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية	ط١
٨٩	الشعر المتفلّت بين النثر والتفعيلة وخطره	ط١
٩٠	تجربتي الشعرية وامتدادها	ط١
٩١	قراءة في قصيدة مهرجان القصيد	ط١
٩٢	الملحمة بين التصور الإيماني والتصور الوثني	ط١
٩٣	اللغة العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء	ط١
٩٤	أهم الأخطاء الشائعة اليوم في اللغة العربية	ط٢
سادساً : الدواوين الشعرية :		
٩٥	ديوان الأرض المباركة	ط٦
٩٦	ديوان موكب النور	ط٦
٩٧	ديوان جراح على الدرب	ط٤
٩٨	ديوان مهرجان القصيد	ط٣
٩٩	ديوان عبر وعبرات	ط٢

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
١٠٠	ديوان حُرقَة الألم وإشراقة الأمل	ط١
١٠١	درّة الأقصى	ط١
١٠٢	أكثروا ذكر هاذم اللذات . أب يرثي ابنه	ط١
١٠٣	ديوان أين الجنى ؟!	ط١
سابعاً : الملاحم الشعرية وتعتبر جزءاً من دراسة الواقع وأحداثه :		
١٠٤	ملحمة فلسطين	ط٥
١٠٥	ملحمة الأقصى	ط٢
١٠٦	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط٣
١٠٧	ملحمة البوسنة والهرسك	ط٢
١٠٨	ملحمة الإسلام في الهند	ط٢
١٠٩	ملحمة القسطنطينية	ط٢
١١٠	ملحمة الغرباء	ط٢
١١١	ملحمة أرض الرسالات	ط٣
١١٢	ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين	ط١
١١٣	لهفي على بغداد	ط١
١١٤	ملحمة سجن أبو غريب ورفح	ط١
١١٥	ملحمة أفغانستان	ط١
١١٦	ملحمة الطوفان (تسونامي)	ط١
١١٧	ملحمة التاريخ ! قيام الدول الإسلامية وسقوطها	ط١
١١٨	ملحمة غزّة مجزرة بين قسوة الحصار ولهيب النار وهول الدّمار	ط١
ثامناً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
١١٩	خطة الداعية : The Caller's Plan	ط٢
تاسعاً : كتب في علوم أخرى :		
١٢٠	دراسة الموجات الألكترومغناطيسية (باللغة الإنجليزية)	ط١
عاشراً : [illegible]		
١٢١	لقاء المؤمنين . الجزء الأول (ترجم إلى اللغة التركية)	ط١
١٢٢	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (ترجم إلى اللغة التركية)	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
١٢٣	لماذا اللغة العربية (ترجم إلى اللغة الأوردية)	ط١
١٢٤	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (ترجم إلى اللغة الإنجليزية)	ط١

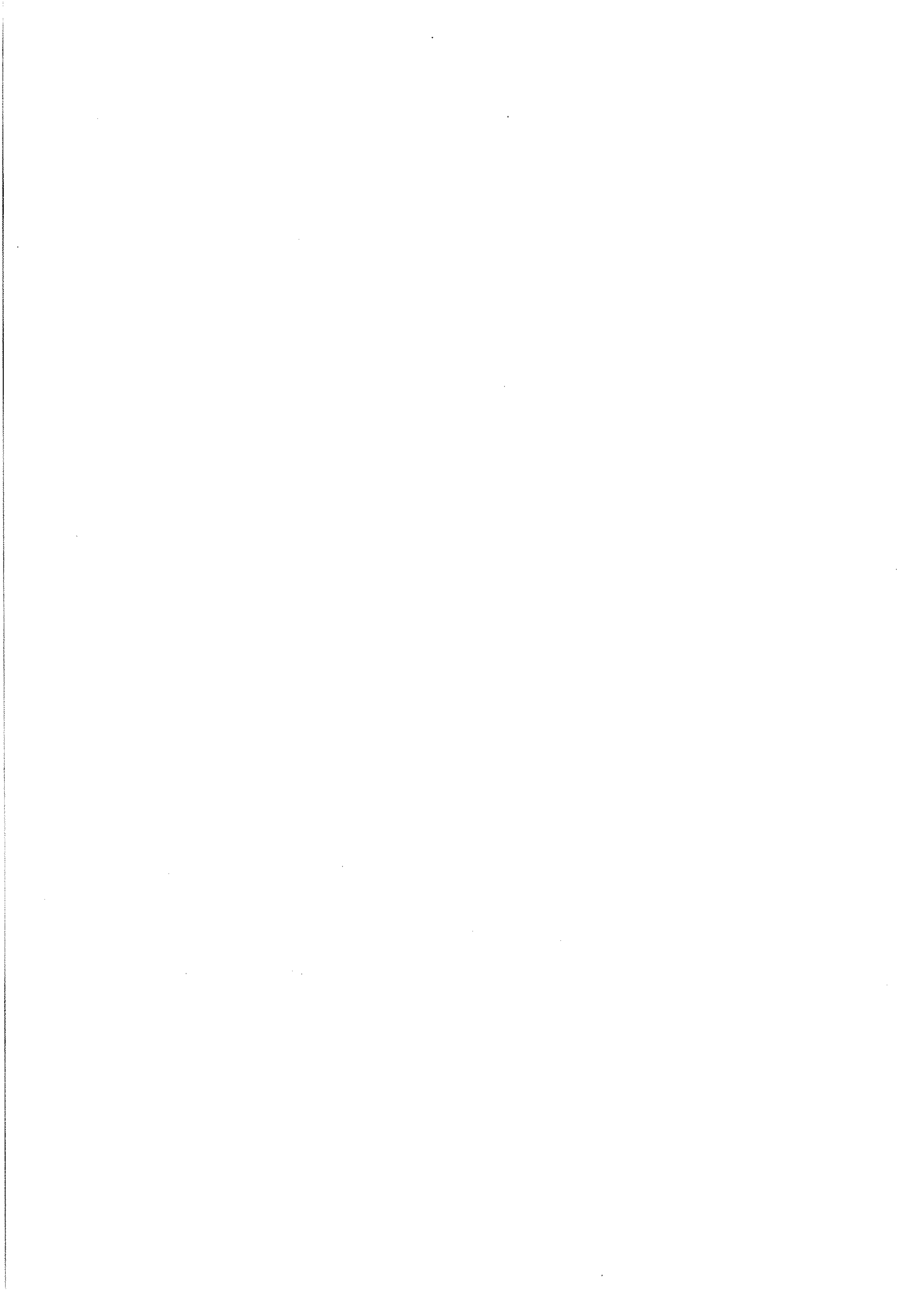
الرقم	اسم المادة	البيان
[illegible] عشر : الصوتيات والمرئيات		
١	أضواء على طريق النجاة	فيديو وكاسيت
٢	لمحة عن واقع المسلمين أمراض وعلاج	فيديو وكاسيت
٣	الإسلام أركان وبناء. تذكير ونصح	فيديو وكاسيت
٤	الأسلوب والأسلوبية	فيديو وكاسيت
٥	درة الأقصى	فيديو وكاسيت
٦	النية والأمانة إشراقة في النفس وجمال	فيديو وكاسيت
٧	حديث النفس بين الدنيا والآخرة	فيديو وكاسيت
٨	التعامل مع مجتمع غير مسلم	فيديو وكاسيت
٩	وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه	فيديو وكاسيت
١٠	قضايا في الأدب الملتزم بالإسلام	فيديو وكاسيت
١١	المسلمون في الغرب بين الإسلام والعلمانية	فيديو وكاسيت
١٢	محاضرة الوصايا والمواعظ	فيديو وكاسيت
١٣	ندوة شعرية. عمان	فيديو وكاسيت
١٤	ندوة شعرية عن فلسطين	فيديو وكاسيت
١٥	ندوة شعرية. جامعة قطر	فيديو وكاسيت
١٦	ندوة شعرية. مؤسسة (مركز) الملك فيصل	فيديو وكاسيت
١٧	محاضرة : وحملها الإنسان	كاسيت

* كتب لمؤلفين آخرين :

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة
١	من ذخائر التراث الإسلامي	الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي	ط١
٢	ملحمة بنت حواء المغربية	الدكتور عبدالرحمن عبدالوافي	ط١
٣	معجم مصطلحات الأدب الإسلامي	الدكتور محمد بن عبدالعظيم بنعزوز	ط١
٤	الإبدال والإعلال دراسة نظرية تطبيقية في قصيدة البردة	الدكتورة منيرة محمود الحمد	ط١
٥	النفخ في الطين قفو الأثر في أسماء السور	الدكتور حسن الأمراني	ط١
٦	قصيدة الإسراء	الدكتور حسن الأمراني	ط٣
٧	ديوان أين الطريق	الأستاذ حسن حمدالله النبالي	ط١
٨	قالت لي أمي - قصة	الأستاذة افنان سمير الحلو	ط١
٩	كمين في منتصف الليل	الأستاذة منى محمد العمد	ط١
١٠	إدارة المستشفيات والخدمات الصحية -ج١	الأستاذ حزام عقيلان العتيبي	ط١
١١	الأصالة والتجديد في الفكر الإسلامي	الدكتور راشد سعيد يوسف شهوان	ط١
١٢	الشهادة والشهداء في الإسلام	الأستاذ يوسف كامل خطاب	ط١

* كتب للنشر والتوزيع :

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة
١	مواقف من التاريخ العربي	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط١
٢	موسوعة العالم في صفحات	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط١
٣	موسوعة الـ ١٠٠٠ سؤال في العلم والمعرفة	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط٤
٤	قطر والعالم الإسلامي-حقائق ومعلومات بيئية	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب وآخرون	ط١
٥	بيضة الديك	الأستاذ يوسف الصيداوي	ط١





شركة دار النحوي للنشر والتوزيع المحدودة

هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ – فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

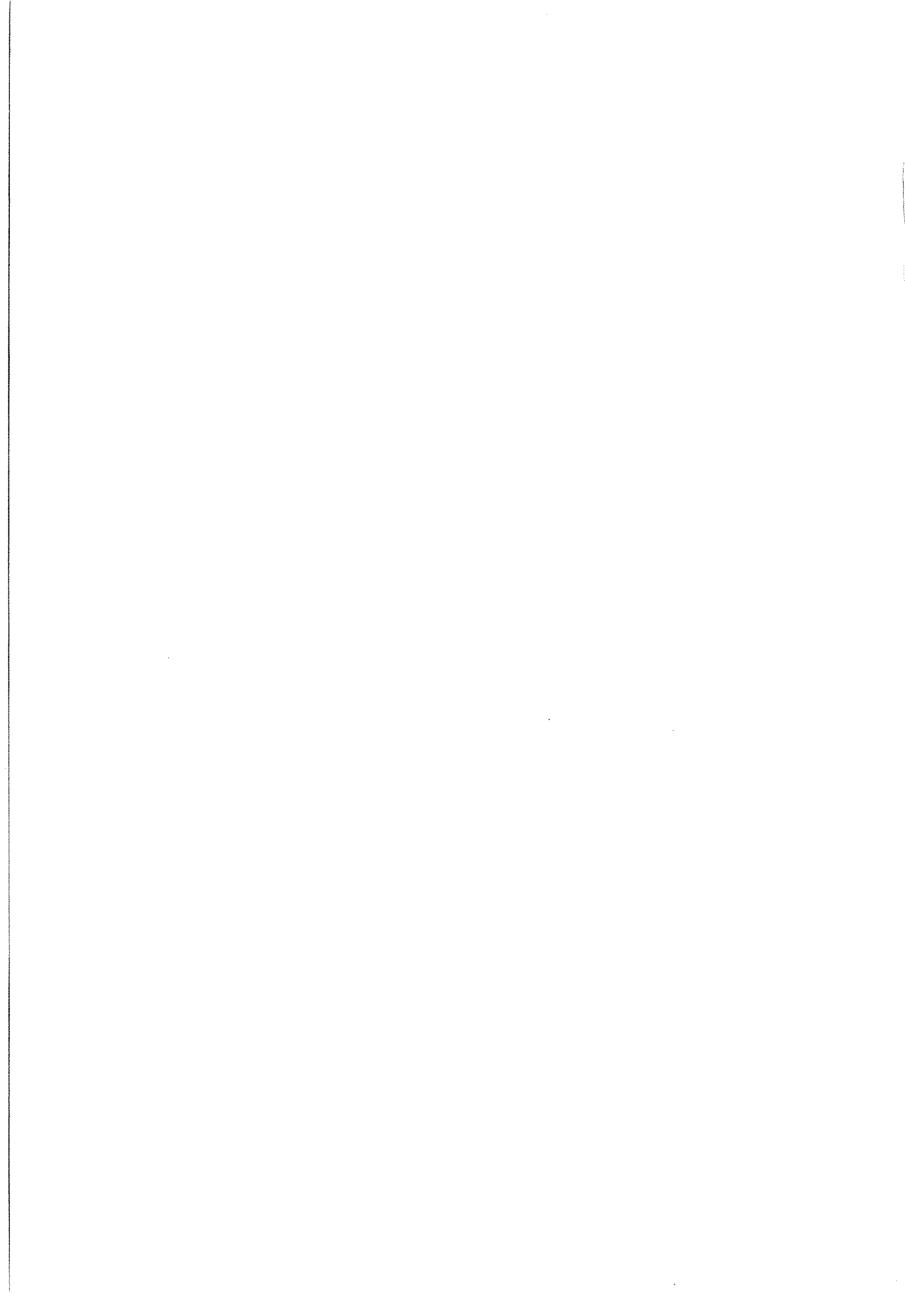
موقع الإنترنت : www.alnahwi.com

البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com

ص . ب : ١٨٩١ ، الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

مطابع أضواء المنتدى ت: ٢٤٢٢٢٧٣-٢٤٢٢٢٧٤ / ٠١



مع هذا الكتاب

قبسات من الكتاب والسنّة تدَبُّرٌ وظلال

الجزء الثالث

لقد كان الباعث الأول لهذه السلسلة من الكتب (قبسات من الكتاب والسنة - تدبّر وظلال) بأجزائها الثلاثة، هو ما فتح الله عليَّ من معانٍ وظلالٍ جديدة لبعض آيات الكتاب الكريم وبعض الأحاديث الشريفة.

أرى أن معنى أيّ آية في كتاب الله يجب أن ينسجم مع سائر معاني السورة، ومع نهج معاني الكتاب الكريم كله، وأن تكون كلُّ آية وكلُّ سورة لبنة في بناء هذا المنهج الرباني العظيم المتناسق كله، المترابط كله، المتكامل كله، ليكون نهجاً للبشريّة كلها مع امتداد الأزمان وتغيّر الأحداث والوقائع. هذا النهج يحتاج في الحقيقة إلى أجواء أُمّةٍ مُؤمنةٍ عاملة، تعيش مع منهاج الله - قرآناً وسنّةً ولغةً عربيّة - حياة منهجيّة ممتدّة لا تنقطع ولا تتوقف، صحبة عمر وحياة، يعمر قلوبها صفاء الإيمان والتوحيد، وقوة العلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله.

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً، وإنما خلقنا لنجعل كلمة الله هي العليا في الأرض. ولا يمكن تحقيق هذه المهمة العظيمة إلا بتبليغ رسالة الله إلى الناس. ومن أجل ذلك وبرحمة من الله وفضلٍ منّ الله علينا بكلّ ما نحتاجه للوفاء بهذه المهمة، حتى لا يكون لأحد من المؤمنين عذر في أيّ تقصير أبداً، وسخّر لنا من أجل ذلك ما في السموات والأرض، حتى نصدق الله بالوفاء بهذه المهمة، فلا عذر لأحد من خلق الله بعد ذلك بأن لا يوفي بهذه المهمّة الرئيسة الخطيرة في حياة البشريّة كلها على الأرض.

لذا فإني أعْتبر أن تدبّر منهاج الله وممارسته في الواقع هي القضية الأولى من أجل إصلاح حياة الإنسان على الأرض، وليظل منهاج الله والواقع هما الركنين الأساسيين في النظرية العامة للدعوة الإسلامية التي ندعو لها.

مع هذا الكتاب

قبسات من الكتاب والسنَّة تدَبُّرٌ وظلال

الجزء الثالث

لقد كان الباعث الأول لهذه السلسلة من الكتب (قبسات من الكتاب والسنة - تدبّر وظلال) بأجزائها الثلاثة، هو ما فتح الله عليَّ من معانٍ وظلالٍ جديدة لبعض آيات الكتاب الكريم وبعض الأحاديث الشريفة.

أرى أن معنى أيّ آية في كتاب الله يجب أن ينسجم مع سائر معاني السورة، ومع نهج معاني الكتاب الكريم كله، وأن تكون كلُّ آية وكلُّ سورة لبنة في بناء هذا المنهج الرباني العظيم المتناسق كله، المترابط كله، المتكامل كله، ليكون نهجاً للبشريّة كلها مع امتداد الأزمان وتغيّر الأحداث والوقائع. هذا النهج يحتاج في الحقيقة إلى أجواء أُمَّة مُؤمنة عالمة، تعيش مع منهاج الله - قرآناً وسنَّةً ولغةً عربيّة - حياة منهجيّة ممتدّة لا تنقطع ولا تتوقف، صحبة عمر وحياة، يعمر قلوبها صفاء الإيمان والتوحيد، وقوة العلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله.

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً، وإنما خلقنا لنجعل كلمة الله هي العليا في الأرض. ولا يمكن تحقيق هذه المهمة العظيمة إلا بتبليغ رسالة الله إلى الناس. ومن أجل ذلك وبرحمة من الله وفضلٍ منَ الله علينا بكلّ ما نحتاجه للوفاء بهذه المهمة، حتى لا يكون لأحد من المؤمنين عذر في أيّ تقصير أبداً، وسخّر لنا من أجل ذلك ما في السموات والأرض، حتى نصدق الله بالوفاء بهذه المهمة، فلا عذر لأحد من خلق الله بعد ذلك بأن لا يوفي بهذه المهمّة الرئيسة الخطيرة في حياة البشريَة كلها على الأرض.

لذا فإني أعْتبر أن تدبّر منهاج الله وممارسته في الواقع هي القضية الأولى من أجل إصلاح حياة الإنسان على الأرض، وليظل منهاج الله والواقع هما الركنين الأساسيين في النظرية العامة للدعوة الإسلامية التي ندعو لها.